الخَلاص

الكتاب: الخلاص

الكاتب: شريف ثابت

تصميم الغلاف: نور حسام الدين

تدقيق لغوي: هدير جودة

رقم الإيداع: 2019/1988

الترقيم الدولي: 978-977-778-255-8

للنشر والتوزيع

20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة

ت: 02-338560372

info@noonpublishing.net

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

شريف ثابت

الخَلاص

بَصيرة شيطان

رواية

ن للنشر والتوزيع

مقدمة

الغُفران منحة سخيّة.

الغُفران نعمة النعم ومنتهى الأمل.

الغُفران هو طوق النجاة الوحيد!

الهارب!

خيم الصمت ثقيلًا على المكان، صمت لم يبدده سوى صوت خطوات ثقيلة تهرس الأرض من تحتها وهي تتجول في حذر وترقب.

حملق (كاز) خائفًا، عبر شقوق مخبئه، في كتيبة الحراس التي أخذت في الاقتراب منه برويةٍ.

كانوا عماليق بلون الثلج الناصع، مدججون بحراب متوهجة الرؤوس، وأجنحتهم مشهرة في تحفز واستعداد. أخذوا يجوبون المكان من حوله بخطوات قوية متربصة، ونظرات متفحصة ثاقبة. لم يعرف كم عددهم، ربما سبعة أو عشرة أو لعلهم عشرين، لا يدري، فالرؤية غير جلية من خلال جدران مخبئة الضيق.

لو وجدوه سيفتكون به، وساعتها ستكون نهايته، ونهاية رحلته، ونهاية الأمل الذي يزهر بين حنايا روحه الحزينة.

ولكن ما الذي يتوقعه شيطان مثله عندما تجده الملائكة وقد تعدى الحدود المسموحة له؟!

قبل لحظات معدودة كان يتيه في السماء القاحلة المهجورة، ثمَّ وجد تلك البوابة العجيبة، فتسلل عبرها يائسًا هاربًا من مطارديه ليجد نفسه في ذلك المكان. فوق كوكب براق في سماء غريبة عليه لم يزرها سابقًا. كان مكشوفًا لأي

عابر فتوارى ملهوفًا بين كتل الصخور كي لا يراه أحد، وبعدها بلحظات عجّ المكان بالملائكة المسلحين!!

اِنتبه من أفكاره على صوت خطواتهم وهي تقترب أكثر وأكثر من مخبئه، فكوّر جسده الأسود المحرشف وبقى بلا حراك.

اللعنة، ما الذي أوقع نفسه فيه؟!!

في حذرٍ اِختلس نظرات سريعة للخارج عله يجد مخرجًا من ورطته. من حوله اِنبسط سهل واسع فسيح، مُغطى بالحصى الملون الملتمع، وتناثرت فوقه مجموعات من كتل صخرية ضخمة، حيث كان يختبئ في جوف مجموعة منها، وحول السهل أحاطت سلاسل جبلية رمادية هائلة من كل اِتجاه.

المكان يبدو كفخ مميت أوقع نفسه فيه طواعية.

ماذا بيده ليفعله الآن؟ لا شيء سوى الانتظار. اِنتظار النجاة أو الهلاك..، أيهما يأتي أولًا!

أرخى ظهره المتوترفوق جدران مخبئه وتاه ببصره في السماء البعيدة هناك، ليرسم الضوء الهارب عبر الشقوق شريطًا أرجوانيًا خافتًا فوق صفحة وجهه.

هل كان على حق حينما أقدم على رحلته المجنونة تلك؟؟ هل كان على حق حينما غادر قبيلته وفر من عالمه ومن كل ما يعرفه؟ هل كان على حق حينما ظن أن مصيره بيديه، وأن النجاة أمل يحق له أن يصبو إليه؟؟

مضى الوقت بطيئًا وهو رابض في سكون، يختلس النظرات من حين لآخر لتلك السماء الملونة الجديدة عليه، وينصت لكتيبة الملائكة وهي تفتش كل زاوية بحثًا عنه، إلى أن سمعهم يهمهمون بعبارات مبهمة قبل أن يدق أحدهم،

ربما كان قائدهم، الأرض بحربته فأحجموا جميعهم عن الحركة والحديث، وعاد الصمت عميقًا كثيفًا يغمر كل الأشياء.

ترى، ما الذي يخططون له؟ هل اِنتبهوا لآثاره؟ هل سينقضون عليه الآن من كل جانب وهم يتصايحون ويهللون؟؟

أفزعته الفكرة فانكمش أكثر في مكمنه، وبداخله تضاعفت رغبته المحمومة في البقاء حيًّا، يجب ألا يظفروا به!

أجل، عليه أن يواصل رحلته المقدسة للبحث عن الحقيقة. الحقيقة التي جعلته يكفر بكل ما آمن به من قبل، ودفعته دفعًا كي يغادر حياته السابقة وراء ظهره.

الحقيقة التي سلبته حبيبته، وجعلت منه قاتلًا طريدًا وحيدًا.

الحقيقة التي أورثته الهم، والشقاء، والشكوك.

عليه أن يصل إلى أصل تلك الحقيقة الثمينة، إنها فرصة نجاته الوحيدة.

عليه أن يواصل رحلته عبر السماوات العميقة الشاسعة، الواحدة تلو الأخرى، ليجوس عوالم مخفية لم يعرفها سابقًا، ويحارب جيوشًا مجهولة لا قبل له بها، كي يرقى بعدها إلى الأعلى فالأعلى، حتَّى يصل إلى قدس الأقداس، حيث العرش المحمول.

كي يقابل الإله!!

حظائر الشر!

(قبل عشرين عام نجمية)

كوكب جليدي ناء، يسافر هائمًا شريدًا، مستترًا بظلماء الكون، بعدما اِنطفأت جذوة النجم الذي يدور حوله منذ زمن سحيق.

فوق بقعة من سطحه البارد المشقق، وتحت قبة سمائه المعتمة، ووسط عواصفه الثلجية الهوجاء، تكالبت عشرات الألوف من الشياطين على تشييد صرح جديد لمليكهم المحبوب (إبليس)!

اِنقسموا إلى فرق عدة؛ فريق يحطم كتل الصخور الهائلة، وفريق يصقلها، وفريق يحملها ويثبتها فوق بعضها البعض، كي ترتفع جدارًا حجريًّا يشق عنان السماء.

أرض الكوكب الزلقة والرياح العاتية جعلت من تثبيت البناء أمرًا يقارب المستحيل، لكن كتائب حراس الشياطين، (الجلادين)، حاوطت البنائين من كل اِتجاه، متربصة بأي كسول أو متخاذل. كانوا غلاظًا، ضخامًا، يلهبون خوف الجميع بصرخاتهم المزلزلة وضربات سياطهم الموجعة.

عقيدة (الجلادين) واضحة لا لبس فيها؛ الولاء التام للعظيم (إبليس). للملك الذي جمع شتات الشياطين وجعل منهم أمة قوية في هذا العالم القاسي. العوام

من الشياطين لا يدرون قيمة ما فعله الملك الخالد قديمًا، وكيف ضحى من أجلهم كي يرفع شأنهم فوق باقي قبائل الجن والملائكة الحاقدين. لذا لا بد وأن تكتمل أبنيته مهما بلغت التضحيات. لا بد وأن تزين صروح الملك كل كوكب تطأه الشياطين في ترحالهم عبر السماء الرحيبة.

وفي زاوية منعزلة، غير بعيدٍ عن قطيع البنائين وضوضائهم، وتحت أنظار ثلاثة من الجلادين المتحفزين، وقف الشيطان الشاب (شالتون)، مرتجفًا متوترًا، وهو يحمل مولوده الأول بين يديه.

لم يستوعبْ المشاعر المختلطة التي تدور بداخله، هل يسعد أم يحزن؟ هذه أول مرة يحظى بصغير من صلبه. نظر إلى خليلته المستلقية عند قدميه، علها تساعده وتشد من أزره، لكنها دارت نظراتها بعيدًا عنه وهي تتأوه متألمة وقد أجهدتها آلام الولادة الطويلة.

ربما لم يفهم (شالتون) ما الذي يعنيه أن يحمل صغيره، لكنه كان يعي تمامًا ما الذي يعنيه خرق القوانين الصارمة، لذا اِستعد جيدًا وجهز نفسه لتلك اللحظة منذ وقت بعيد.

راودته رغبة طائشة في أن يطالع وجه وليده، لكنه طرد الفكرة سريعًا من عقله، ورفع الوليد من فوره إلى السماء وهو يطأطئ رأسه في إذعانٍ.

القانون واضح صريح: ليس من حق بني (إبليس) الإبقاء على صغارهم أو حتَّى النظر إليهم. هناك من سيعتني بهم عوضًا عن ذويهم! لا آباء وأبناء وأقارب بين بني (إبليس)، فالكل أسرة واحدة. التاريخ واحد، والهدف واحد، والمصير يجمع الكل تحت مظلته.

مرت لحظات طويلة على (شالتون) وخليلته وهما متحفزان مستعدان قبل أن يقتحم السماء واحد من الجلادين الضخام، بملامحه البليدة العابسة، وهو

يخفق بجناحيه العريضين محدثًا قدرًا لا بأس به من الجلبة وعواصف الغبار، ثمَّ هبط صوبهما. ومن دون كلمة واحدة، اِلتقط الشيطان الوليد، ثمَّ تبادل نظرات محذرة مع الأبوين، قبل أن يستدير وينطلق لأعلى ويختفي في قلب السماء الداكنة.

وكانت هذه آخر مرة يرى فيها الشيطان (شالتون) وخليلته وليدهما!

***

بعد رحلة طويلة حذرة في دروب السماء، وصل الجلاد الضخم، حاملًا الشيطان الوليد، إلى كوكب يكاد يكون مخفيًا لمن لا يعرف مكانه بدقة. كان واحدًا من كواكب قليلة متناثرة في عرض السماء، ومختارة بعناية، كي تأوي حظائر لتنشئة صغار الشياطين الذين يتم جلبهم من قطعان وفرق بني (إبليس) المتعددة.

على مشارف سماء الكوكب، اِعترضت طريق الجلاد فرقة من الحرس الشيطاني. لا أحد يعبر إلى أرض الكوكب ولا يغادره إلَّا بإذن، حتَّى لو كان شيطانًا!

وبعد فحص وتمحيص، تأكدت الفرقة من هوية الجلاد، وحينما رأوا الوليد معه عرفوا سبب الزيارة، فأفسحوا له المجال ليكمل طريقه نزولًا إلى سطح الكوكب المستتر تحت الغيوم السوداء.

اِخترق الجلاد طبقات السحب الكثيفة، المتخمة بالصواعق، حتَّى هبط على الأرض المدججة بالحراس. طوى جناحيه خلف ظهره، وانتظر خاشعًا في صمت، وهو ينظر أمامه إلى واد ضيق يمتد بين سلاسل الجبال الزرقاء الشاهقة.

بعد لحظات، أقبلت نحوه شيطانة عجوز ترفل في السواد. كانت هذه (كاتولا)، واحدة من بنات (إبليس) الملك، والمشرفة على المكان. الكل يخشاها ويرتعب منها.

اِلتقطت (كاتولا) الشيطان الوليد وتفحصته مليًّا، ثمَّ رفعت نظراتها الحادة إلى الجلاد وكأنها تذكّره بسرية وخطورة ما يعرفه وما يفعله، ثمَّ قالت في جمودٍ:

- وليد مليح، سيسر به الملك كثيراً، اِنصرف أنت الآن.

أحنى الجلاد رأسه الضخم في خنوع، وهمهم بشيء ما، ثمَّ انطلق إلى قلب السماء.

رفعت (كاتولا) نظراتها فوق رأسها نحو الغيوم الهائجة. تعرف أن أباها يراقب كعادته كل ما يحدث في أرجاء مملكته، وأنه سيأتي حتمًا ليبارك الوليد. جندي جديد يضاف إلى حشود الشياطين!

وبالفعل، بعد لحظات ظهر (إبليس) في السماء، مهيبًا فارعًا عملاقًا، ألوانه تتماوج بين الأسود والأحمر، وأجنحته الأربعة الواسعة تحمله فوق رؤوس الجميع، فخرّت (كاتولا) و مَن حولها راكعين.

هبط (إبليس) بخيلاء حتَّى لامس الأرض، ثمَّ اقترب من اِبنته وحمل عنها الوليد. أطال النظر في عينيه وكأنه يستجلي أمرًا غامضًا يصعب عليه إدراكه، لكنه بالنهاية قال راضيًا وهو يناول (كاتولا) الوليد:

- سأسميه (كاز، خذيه واهتمي به، سيكون له شأن عظيم بيننا.

ربما كان تكهنًا خالصًا، أو ربما شيئًا من بقايا علمه السابق، لكن (إبليس) راوده شعور فريد تجاه الوليد الجديد. شعر أنه مختلف عن باقي بنيه وأحفاده وحلفائه، وأن هناك الكثير سيحدث بسببه. وكان محقًا في شعوره هذا إلى حد بعيد!!

***

في الحظيرة تقوم مجموعات من إناث الشياطين القُدامى على تدريب الصغار، وتلقينهم التاريخ من خلال مخطوطات (إبليس) التي صاغها بنفسه؛ مخطوطات تحكي عن ماضي الشياطين وحاضرهم ومستقبلهم، وكيف تآمر الكل ضدهم، وكيف ستفتح الجنة أبوابها لهم من جديد!!

ظروف الإعاشة قاسية وصعبة وكارثية. الهروب من الأعاصير العاتية، وتجنب الزلازل والبراكين، والفرار من النيازك الساقطة التي تدك الكوكب هي مسؤولية الصغار. يجب أن يتولد لديهم، منذ أيامهم الأولى، الشعور بأنهم وحيدون في مواجهة المخاطر والموت، وأن لا أحد سيمد لهم يد العون والمساعدة في هذا العالم.

نجا (كاز) من عديد الاختبارات والكوارث. وفي وقت قياسي أتقن الوسوسة، والتلبّس، والسفر عبر دروب السماء. كان حاد الذكاء، قوي البنية، متفوقًا على كل أقرانه بفارق شاسع، ولفت ذلك أنظار (كاتولا) وباقي المربيات.

ومرت الشهور وكبر (كاز) واشتد عوده، إلَّا أن (كاتولا) لم تسمح له بمغادرة الحظيرة والالتحاق بفرق الشياطين الأخرى، مثلما فعلت مع أقرانه. رأته مختلفًا عن الجميع، لذا أبقته تحت أنظارها كي تبت في أمره.

***

أكمل (كاز) في الحظيرة عشر سنوات نجمية يدرس مخطوطات الملك، ويتعلم حيل الجان، ويخدم الملتحقين الجدد. ولكنه لسبب ما، كان شديد الفضول، كثير السؤال، ممتلئًا بالشك عكس كل أقرانه!

في أحد الأيام سأل (كاتولا):

- من أين أتى الملك الطيب (إبليس)؟

أشارت الشيطانة العجوز إلى السماء، وقالت:

- من الجنة، الملك (إبليس) جنيّ كريم، خُلق من نار العزة، أحبه الرب لإخلاصه وتفانيه، فأعطاه مفاتيح الجنة وجعله رئيسًا لكل الملائكة.

- وهل الملائكة طيبون؟

- كلا، إنهم أشرار وبغيضون.

- وكيف عاش معهم الملك الطيب (إبليس) وهم على تلك الشاكلة؟؟

- تظاهروا بالمودة والطيبة قبل أن ينقلبوا عليه ويخونوه، لأنه لم يكنْ ملاكًا أصيلًا مثلهم.

وقبل أن يفتح فمه بالمزيد من الأسئلة، رمقته (كاتولا) بغضبٍ، فانصرف ليواصل تدريباته الشيطانية الشاقة. ولم تمر بضعة أسابيع حتّى عاد وسألها بحيرة:

- من أين أتينا نحن؟

- كلنا أتينا من الملك (إبليس، نحن نسله ومن صلبه.

- هل حقًا أننا سندخل الجنة في نهاية الزمان؟

- طبعًا!

- ولماذا طردنا الإله منها؟ لم لا نعيش فيها الآن؟

- لأننا تعرضنا لمكيدة، نحن مظلومون.

- وهل (آدم) الشرير هو من ظلمنا؟

- أجل، (آدم) هو من وشى بالملك الطيب عند الإله، وأخبره أنه يخطط للانقلاب عليه وأخذ زمام العرش منه.

- وكيف صدقه الإله؟؟ ألم يكن الملك (إبليس) مقربًا من الإله؟

- أجل، ولكن الإله أحب مخلوق الطين أكثر!

- وكيف يحب الإله (آدم) ثمَّ يطرده بعد ذلك من الجنة إلى الأرض، ويلعنه، ويحكم عليه هو ونسله بدخول الجحيم؟

أشاحت (كاتولا) ببصرها إلى السماء وقالت:

- لأنه اكتشف طمع (آدم)، فبعد أن تخلص مخلوق الطين من شوكة الملك (إبليس)، خلا له المكان وتملكه الغرور، فخان ثقة الإله وأكل من الشجرة المحرمة ليصير إلَهًا خالدًا!

عاد (كاز) يسأل:

- إذن فالبشر سيئون ويستحقون أن نغويهم ونكيد لهم وندخلهم الجحيم.

- نعم، وتلك هي أحكام الإله وأوامره جزاءً لهم على خيانتهم وطمعهم، ونحن ننفذها!

- نحن الأخيار إذن، وهم الأشرار، أليس كذلك؟؟

- أجل، نحن الأخيار المظلومون الذين تآمر الجميع ضدهم، لكننا سنصمد ونقاتل حتَّى ندخل الجنة من جديد.

- ولكن كيف؟

- كفى! اِنصرف إلى عملك وتدريباتك، هيا أغرب عن وجهي!

مرت شهور عديدة و(كاز) مواظب على صمته، بينما (كاتولا) ترقبه عن بعد. كاد الفضول أن يقتلها لتعرف فيم يفكر ذلك الخبيث، فاقتربت منه يومًا وسألته:

- هل أتممت قراءة مخطوطات الملك؟

- ليس بعد يا سيدتي، إنها كثيرة لكني أقرأها بشغف

- أحسنت.

ساد الصمت بينهما طويلًا، وكلاهما يتفحص الآخر متشككًا، إلى أن قالت (كاتولا):

- ألا زالت هناك أسئلة تحوم في رأسك أيها الصغير؟

همس (كاز) في حذر:

- أجل يا سيدتي.

- وعم تريد أن تسأل هذه المرة؟

- من هم المنبوذون؟؟

اِرتعدت (كاتولا) ثمَّ صاحت في فزعٍ وذهول، وهي تتلفت حولها لتتأكد أنه لا أحد في الجوار:

- أين سمعت تلك الكلمة يا ملعون؟؟

أسرع (كاز) يجيب خائفًا:

- سمعت، ذات ليلة، بعض الجلادين يهمسون بها ولم أفهم معناها.

لطمته (كاتولا) بقوةٍ، ثمَّ دفعته على الأرض، وبركت فوقه وفحّت:

- المنبوذون هم جماعة من الخونة المارقين، والملك الطيب لا يطيق ذكرهم لذا لا تقل هذه الكلمة ثانية، ومن الأفضل لك أن تنساها.

- سمعًا وطاعةً يا سيدتي، لن أقولها، سأنساها تمامًا!

اِلتفت (كاتولا) بكيانها الأسود حول جسد (كاز) اليافع واعتصرته وهي تواصل فحيحها:

- ألا زلت على إيمانك أيها الشقي؟

- أجل يا سيدتي، أقسم بالملك الطيب.

- إذن إياك أن تجادل أو تسأل مرة أخرى، هذه آخر فرصة سأعطيها لك!

بعد تلك الواقعة عزلته (كاتولا) داخل كهف بارد في أعلى جبال الكوكب لفترة طويلة.

كان (كاز) يرفع نظراته الحائرة عبر صدوع سجنه إلى قلب السماء، محاولًا أن يفهم لماذا غضبت عليه (كاتولا). لقد اِستفسر فقط عن أشياء مبهمة وغامضة ولا يستوعبها عقله.

كيف يكتمل إيمانه إن لم يفهم؟!

وفي النهاية اِستسلم وقرر ألا يسأل ثانيةً عن أي شيء. فقط يسمع وينفذ ما يُقال له، وإلا فالموت سيكون عقابه التالي.

بالواقع، (كاتولا) كانت في مأزق شديد وهي تفكر في مصير (كاز). ليس سهلًا التضحية بشيطان نابغة مثله لمجرد الشك. فالبارعون من أمثاله نادرون جدًا، وثمينون للغاية.

بنو (إبليس) في معظمهم أغبياء، خانعون، ويلقون حتفهم كل يوم بسبب صراعاتهم الداخلية أو على يد حراس الملائكة وباقي قبائل الجن المتربصة. وجود شيطان مثل (كاز)، يؤازر أبيها ويسانده في مهمته الشاقة لتثبيت أركان عرشه، هو أمر له أولوية قصوى.

لذا أبقت (كاتولا) على حياة (كاز)، وقررت ألا تضمه إلى فصائل الجلادين، الذين يقومون بأعمال الحراسة، فهو ليس ضخمًا غبيًا مثلهم. ولن تلحقه كذلك بالفرق الخاصة التي تؤدي مهام التنصّت، والسحر، فهؤلاء معرضون للهلاك أكثر من غيرهم.

رأت من الأفضل أن يذهب للعمل مع جحافل البنائين، حتَّى ينهكه التعب، وتستبين نواياه. إن تأكدت من غدره وطمعه في ملك أبيها فستجعله عبرة للجميع، وتذيقه شتى أنواع العذاب. أما إن تبين لها ولاؤه وتفانيه، فوقتها سيكون خير مُعين للملك وللقضية، بل وقد يقلب موازين اللعبة كلها!

وبعد ثلاثة أعوام، جاء اليوم الموعود، والتحق (كاز) بواحد من قطعان البنائين، كي يشيد صروح الملك العظيم، كان عليه أن يقضي سبع سنوات إضافية في البناء قبل أن يؤذن له بالنزول إلى الأرض.

استعدادٌ للرحيل!

- لا أستطيع الاستمرار، هذا كثير!

قالها الشيطان (أشتون) معترضًا، وهو يثبت صخرة ضخمة فوق جدار عال. كان (أشتون) واحدًا من القليلين الذين يعرفهم (كاز)، فهو لم يحظ بالكثير من الزملاء في قطيعه، لذا أسرع يساعده وهتف به:

- اخفض صوتك أيُّها الأحمق!

همس (آشتون) بحنق:

- نحن نعمل بلا توقف منذ ثلاث ليالٍ.

- ماذا لو سمعك الجلادون وأنت تتذمر؟

ملأ الفزع ملامح (أشتون) وانتبه لفداحة تهوره، فأردف (كاز):

- لحسن الحظ لم ينتبه إليك أحد، اسمع، لقد قاربنا على الانتهاء، وبعدها سنذهب لأرض البشر، فكف عن الشكوى وواصل العمل.

هز (أشتون) رأسه السوداء المحرشفة علامة الاقتناع، ثمَّ خفق بجناحيه منهكًا وهبط مع (كاز) ليختلطا بطوفان البنائين المتكالبين على تثبيت قاعدة البناء.

كانوا يعملون فوق سطح كوكب ثائر، تغطيه الرمال الناعمة، وتبدو شمسه

صغيرة فاترة. الجلادون كعادتهم ثائرون، وينهالون بالجلد على جموع العمال كي لا يتوقفوا عن العمل.

مر يومان إضافيان من التشييد المضن حتَّى اِكتمل الصرح أخيراً، ووقف صامدًا في وجه ثورات الرياح، فارتفعت أصوات الأبواق معلنة وقت الراحة والغذاء، ومن ثمَّ الرحيل صوب الأرض.

هوى (كاز) مكانه في إعياء.

أخيراً اِقتربت اللحظة التي يحلم بها. سيزور الأرض للمرة الأولى، ويقابل عدوه البغيض وجهًا لوجه!

لقد أمضى السنوات الماضية في صفوف البنائين، يتنقل من كوكب إلى كوكب. لم يسأل عن أي أمر يثير الشكوك، وابتعد عن المشاجرات والمشاكل. أنصت دومًا لحكايات العائدين من أرض البشر وهو منبهر ومتعطش لأن يكون مثلهم. حتَّى اِطمأنت له (كاتولا) بالنهاية ومنحته الموافقة بالذهاب.

فجأة سمع الجميع صوت قرقعة مكتوم فوق الرؤوس، فاتسعت دائرة الجلادين المحيطة بالبنائين ثمَّ ظهر في قلب السماء واحد من شياطين (الصفوة) الوجهاء، ذوي المهابة الرفيعة والسطوة اللا محدودة.

يخشى الجميع شياطين الصفوة لقوتهم، وقسوتهم، وشدة بطشهم. هم من يحكمون الجلادين وقطعان الشياطين، ويتلقون الأوامر مباشرة من الملك (إبليس) ويرفعون إليه تقاريرهم. أصولهم ضاربة في أعماق الزمن السحيق، فهم من كبار مردة الجن الذين عاصروا (عزازيل) عندما كان واحدًا من خدم الرب المخلصين. وحين سقط من السماء وطُرد من نعيمها، لحقوا به وأعطوه عهدهم بأن يكونوا أنصاره وتابعيه، وأعطاهم بالمقابل وفير الحماية والنفوذ.

يهمس البعض فيما بينهم بأن الملك (إبليس) اشترى صمت وجهاء الصفوة، فهم شاهدون على ما حدث قديمًا خلف أستار السماوات العُلى، ويعرفون تفاصيل التاريخ الحقيقي. التاريخ الذي أخفاه (إبليس) عن باقي بنيه وعشيرته، واستبدله بآخرٍ، سجله في مخطوطات عديدة، كي يمجد نفسه ويصور كيف تآمر الجميع ضده.

لكن ذلك ما يهمس به البعض، إشاعات لا أكثر!

حام شيطان الصفوة فوق الجميع، بتكوينه الفارع العريض وألوانه الداكنة المتماوجة، وتعلقت كل الأنظار الخائفة بوجهه الصارم، ثمَّ بدأ حديثًا مكررًا اِعتاد الجميع سماعه قبل كل رحلة للأرض.

حذرهم بأن الهلاك هو المصير المحتوم لمن يفتح مخطوطات البشر ويقرأ ما فيها من أكاذيب وضلالات، فهي مملوءة بالتدليس والتطاول على الملك الطيب، إضافةً أنها خطيرة وتحرق من يقرأها.

ثمَّ صاح فيهم يذكرهم حين تحالفت الملائكة مع (آدم) ضد (إبليس) الطيب:

- أيُّها المخلصون، إن السبيل الوحيد لبراءة الملك (إبليس) وجميع أبناء جنسنا الطيب هو أن ينفذ حكم الإله في البشر، خلاصنا الوحيد أن يدخلوا جميعًا إلى الجحيم، وقتها سيتأكد الإله أن (إبليس) المخلص بريء مظلوم، ساعتها سيعفو عنه وعنا ويدخلنا الجنة!

هاجت الجموع وعلا صراخهم فواصل في حماسة:

- يجب ألا ينجو آدمي واحد، لا ترحموهم، لا تخدعكم دموعهم ولا توسلاتهم، فكلهم خبيثون؛ صغارهم وشبابهم وعجائزهم، نساؤهم ورجالهم، لا أحد ينجو، إما حياتنا أو حياتهم.

دار بنظراته بين الجميع وهو يشعر بالرضا، بعدما شحذ هممهم المنهكة وألهب أرواحهم اليائسة، ثمَّ ارتفع أكثر في السماء القاتمة حتَّى اِختفى.

أحس (كاز) بالثورة تملأ جسده المنهك. بعد قليل ستبدأ المعركة، ستكون رحلته الأولى لكوكب البشر تجربة لا تنسى!

نهض بحماسة، والتحق بطابور طويل من الشياطين يتحرك ببطء صوب بوابة السفر بين النجوم، بوابة كبيرة تبدو كإطارٍ مستطيلٍ من النور المتلألئ، من يعبر خلالها يختفي ويعاود الظهور في مكان آخر بعيد من الكون الشاسع!

وحينما أتى دوره قفز داخلها، وفرد جناحيه الواسعين، والتحق بسيل المسافرين.

أول رحلة إلى الأرض!

القاهرة العام 1920 بعد الميلاد، بتقويم البشر.

في ليلة ينيرها وجه القمر المكتمل، خرجت أفواج الشياطين من البوابة المتوهجة إلى قلب واحدة من صحاري الأرض المهجورة. صحراء عذراء لم تطأها قدم إنسي من قبل، تحميها جبال قاسية من كل جانب، وتملأها كثبان رملية ملساء، نقشت عليها الرياح عديد القصص والأساطير.

هبط (كاز) وسط جموع القادمين، ونظراته المترقبة تتفحص المكان من حوله في رهبة ووجل.

أول مرة له فوق أرض البشر.

كل شيء يبدو جميلًا، وساكنًا، ومتفردًا. لا زلازل، ولا أعاصير، ولا نيازك تدك المكان. نسمات الهواء الباردة تملّس عليه وتهمس له بلغة لا يدري كنهها. غزالتان صغيرتان، صفراوتان بلون الرمال اللامعة، ظهرتا من خلف تلة قريبة وتلفتتا حولهما في فضول، قبل أن تنطلقا في طريقهما بقفزات رشيقة واسعة.

شعر برعشة تسري في جسده المتوتر المنهك. هل وقع في غرام الأرض؟ هكذا، من أول نظرة؟!

كيف لكوكب هادئ خلاب كهذا أن يحمل فوق سطحه كائنات بغيضة ملعونة مثل البشر؟! لم لم تسكن الشياطين الأرض؟ لم لم تسكنها حتَّى الملائكة؟ كيف يطرد الرب (آدم) من جنته ليسكنه فردوس الأرض؟ هل هذا هو العقاب؟؟؟

أفاق من شروده على صياح الجلادين وهم يأمرون الشياطين بالانتشار، كل إلى موقعه. أمامهم ثلاثون يومًا أرضية قبل أن يتجمعوا مجددًا هنا في نفس المكان اِستعدادًا للرحيل. فانطلق الجميع يخفقون بأجنحتهم متحمسين تجاه كل صوب من السماء الرحبة.

***

عاليًا وسط ظلام السماء ومستترًا بالغمام الأبيض، توقف (كاز) عن الطيران ونظر أسفل منه إلى واد أخضر واسع، يخترقه نهر وفير المياه، وتحوطه الصحاري من كل جانب. هنالك تقع أحد أقدم بلدان الأرض، تلك التي سكنها نسل (مصرايم) بن (حام) بن (نوح) بعد الطوفان العظيم.

اِرتقى أهلها على مر السنين، وأصبحوا أصحاب علم واسع. برعوا في الطب والسحر والهندسة، وشيدوا معابد شامخة وأهرامات مهيبة بقيت شاهدةً على حضارتهم الاستثنائية الغابرة.

كان هناك شغف غريب يجذبه إلى تلك البقعة من الأرض دونًا عن غيرها. شغف وُلد بداخله وتعاظم منذ أن كان في جوف السماء البعيدة يحطم الجبال ويشيد الصروح. سمع من زملائه الكثير عن هذه البلاد وساكنيها. وشعر من ساعتها أن معركته ضد البشر، حين ينزل أرضهم، لا بد وأن تبدأ من تلك البلاد الغامضة!

في النهاية حزم أمره وهبط قرب المدينة الكبيرة، ثمَّ بدأ يسير بحذر نحو العمران وهو يرسم في مخيلته خطة الهجوم.

لكن (كاز) شعر مع كل خطوة يخطوها بأن هناك من يتبعه بإصرار، فتوقف وانصت جيدًا حتَّى تأكد من صحة شكوكه، ثمَّ التفت للخلف بسرعة، فرأى شيطانة تنظر تجاهه في ترقب وقد ألجمتها المفاجأة!

أخذت الشيطانة المبادرة، ودنت منه ثمَّ قالت:

- أنت (كاز)، أليس كذلك؟

- نعم، ومن أنتِ؟

- أنا (سيرا)، زميلة من القطيع.

- ولم تتبعيني؟

- لم أقصد أن أتطفل عليك، وددت فقط أن أرافقك، هل تسمح لي؟

- ولكن هذه أول مرة لي على الأرض و...

- لا عليك، أنا زرت تلك المدينة مرات عديدة وأعرف خباياها جيدًا، فقط ابق إلى جانبي حتَّى تعتاد على الأجواء.

- ولكن.

- لا تخف مني، لن تشعر بوجودي، أنا فقط أحتاج لرفيق يؤنسني.

وبعد تردد قصير وافق (كاز)، وأكمل طريقه نحو المدينة برفقة زميلته الجديدة. لا بأس من مؤنسٍ يملك الخبرة والمعرفة، خاصة لو كان مثيراً وفاتنًا!!

***

وصل (كاز) و(سيرا) إلى واحدٍ من أحياء البشر البسيطة، وكمنا خلف أحد الأسوار يرقبان ظهور بشائر الصباح على المكان.

بزغ قرص الشمس ببطء خلف حدود الأفق، وهبت نسائم الهواء باردة منعشة، فتسمّر (كاز) مكانه مبهورًا وهو يشاهد المدينة الغافية تتمطى في كسل لتبدأ يومها الجديد. أنامل الصباح الرقيقة تزيح ستائر الفجر الداكنة عن بيوت الحي وطرقاته، وأبواب المنازل تُفتح تباعًا لينسل منها عشرات البشر سعيًا وراء أرزاقهم.

للمرة الأولى يرى بني (آدم) عن قرب هكذا. بدوا جميلي الوجوه، ومتناسقي الأجساد، وعذبي الأصوات!

اِقترب حذرًا من أحدهم. حاول أن يلمسه ولكنه تراجع ملسوعًا خائفًا. ضحكت (سيرا) وهتفت:

- لا تخف منهم، إنهم لا يشعرون بك، أتبعني أيُّها الصغير.

ثمَّ أرته كيف يقفز على أكتافهم، ويهمس في آذانهم، وينظر تحت ملابسهم!

هدأت نفسه المضطربة واستكان، وملأته الحماسة شيئًا فشيء، واسترجع كل ما تعلمه سابقًا. أمضيا ساعة يلهوان بالبشر كيفما شاءا، ثمَّ أخذته (سيرا) إلى سوق شعبي مزدحم. بدأ الباعة في عرض بضائعهم المتنوعة هنا وهناك بينما تحلق المارة حولهم اِستعدادًا للشراء. هتفت (سيرا):

- كفاك لهوًا، هيا أرني قوتك أيُّها المبتدئ.

ملأت الحماسة (كاز) وأدار بصره في البشر من حوله، ثمَّ ثبت عينيه على بائع فاكهة يفترش الرصيف ومضى يعبث بعقله. عبر أمام البائع رجل ريفي وزوجته. كانت المرأة بضة ممتلئة فجعل (كاز) البائع يرمقها ثمَّ يطيل النظر إلى مفاتنها.

اِنتبه الزوج الغيور لنظرات البائع فاستعر غضبه، وعلا جعيره، وأمسك بتلابيب البصباص يكيل إليه الشتائم، ثمَّ تلاحم الرجلان في عراك عنيف إلى أن شج البائع رأس الزوج الغيور ودفعه أرضًا.

اِخترق (كاز) الزحام، وقفز فوق كتفيّ الزوج الغاضب وانسل داخل رأسه.

قيادة البشر أكثر سلاسة حين يغضبون!

نهض الزوج الجريح معفرًا، والدماء تغطي نصف وجهه. لا بد وأن مظهره الآن مضحك ويدعو للرثاء. كيف يرفع رأسه أمام زوجته إن لم ينتقمْ لكبريائه المسحول ورجولته المبعثرة؟ تسارع قلبه ونفرت عروقه. لا شيء في ذهنه الآن سوى القصاص. مسح الدم عن جبينه وعينيه ثمَّ تلفت حوله كالمجنون. هناك عن يمينه مطعم صغير تجمّع عند بابه بعض الفضوليين يرقبون الشجار.

دفع الزوج الجميع ساخطًا وانسل للداخل ثمَّ رجع كالثور الهائج تجاه البائع حاملًا سكينًا ضخمة. رفع السكين وتملّص من شبكة الأذرع التي حاولت إمساكه، ثمَّ أغمد سلاحه حتَّى المقبض في رقبة غريمه المذهول. خر البائع البصباص صريعًا كلوح خشب فوق أرض الحارة والدماء تنبثق من عنقه حمراء قانية وسط زعيق الرجال وصراخ النساء.

وفي آخر الزقاق، وبعيدًا عن العيون، عاد (كاز) إلى جوار (سيرا) ثمَّ هتف:

- ما رأيك؟؟

طالعته (سيرا) للحظات غير مصدقة. ما فعله كان سريعًا، ومعقدًا، ومتقنًا، ولم يكلفه جهدًا يُذكر. هذا ليس بفعل شيطان مبتدئ!

- عمل رائع، هل، هل أنت متأكد أنك لم تزر الأرض سابقًا؟!

- بالطبع لا، هل اقترفت خطأً ما؟

- لا، مطلقًا.

أخذته داخل منزل مهجور بعيدًا عن السوق وهتفت به:

- تبدو بحالٍ أفضل.

- بالفعل، أشكركِ على المساعدة.

- لا عليك، أتود أن أرافقك بقية اليوم؟

- لا، أفضل أن أخوض تجربتي الأولى وحيدًا.

اِقتربت منه ثمَّ همست وهي تتفحص ملامحه:

- اِنتبه لنفسك جيدًا ولا تتهور، لا داعي لإدخال البشر كلهم في الجحيم اليوم.

- حسنًا!

صمتت مجددًا ثمَّ واصلت الهمس:

- أريد أن أقضي معك بعض الوقت قبل أن نغادر الأرض.

- يسرني هذا.

- اِتفقنا!

في لحظة، تشكلت (سيرا) في صورة اِمرأة سمراء فاتنة، ملفوفة القوام، شعرها أسود قصير، وترتدي فستاناً ضيقًا بلون أزرق داكن، وقبعة بيضاء عريضة.

بينما تحول (كاز) إلى رجل قوي وسيم، أبيض البشرة، يرتدي حلة سوداء، وطربوشًا أحمرًا فوق شعر بنيٍّ ناعم. اِبتسم بوجهه الآدمي الجديد، وهمس:

- سأجدك.

مالت عليه، وقبلته بشفتيها الرطبتين على جانب عنقه، ثمَّ قالت:

- وأنا سأجدك!

اِبتعدا خطوتين للخلف، ثمَّ اِنطلقا كل في اِتجاه.

البداية!

اِنتصف اليوم ولم يغب (كاز) عن تفكير (سيرا) للحظة واحدة.

لم تكنْ الليلة الفائتة أول مرة تراه فيها، فهي تراقبه منذ وقت طويل، وخططت كثيراً للقائه على الأرض.

تعلم جيدًا أنه مميز عن الآخرين، وطالما سمعت عن براعته وقوته ولكنها اِعتقدت أنها أشياء مبالغ فيها، لكن ما رأته منذ لحظات يؤكد أن كل ما سمعته حقيقي، وأنها بصحبة شيطان غير عادي، وأنها يجب أن تحترس جيدًا لنفسها وهي برفقته!

تململت داخل سيارة الأجرة التي تقلها عبر طرقات المدينة، وهي تجول بناظريها خارج النافذة النصف مغلقة. خصلات شعرها الأسود تشاكس الهواء وعيناها البشريتان شاردتان في زرقة السماء الصافية. لا تود أن تفعل أشياء بطولية أو معقدة، فهي تفضل الأعمال الخفيفة، أعمال مثل الحسد والكذب والنميمة، والنظرات المحرمة، ولا بأس من إثارة بعض المشاجرات وإطلاق الشتائم.

بنو (آدم) مطيعون ومتعاونون بطبعهم مع بني (إبليس)، ونادرًا ما يقاومون!

توقفت السيارة على جانب الشارع الواسع أمام جامع كبير، مع لحظة خروج

المصلين وهم يحوقلون ويسبحون. نزلت (سيرا) من السيارة على مهل، ثمَّ تهادت وهي تتبختر بتضاريس جسدها الفاتن أمامهم. حملق الجميع بها بنظرات طويلة جائعة، وتجمدت ألسنتهم، بينما فكر بعضهم في اللحاق بها.

كانت تعرف أنهم يأكلونها بعيونهم. أية عبادة يَدعي هؤلاء الحمقى أداءها؟!

وعند زاوية قريبة اِنعطفت (سيرا) بدلال صوب سوق الأقمشة لتواصل عملها الخفيف.

***

وقفت (فردوس) خلف نافذة المشربية المغلقة تتابع الشارع المزدحم في فتور.

يوم جديد بارد ممل ينضم إلى الأيام الكئيبة العديدة في حياتها. ثلاثينية بدينة لم تحظ بشيء من حسن النساء ولا دلالهن، حتَّى أن والديها اِعتبرا زواجها من المعلم (عاشور) معجزة من السماء! زواج تمَّ منذ خمس سنوات ولم تنل منه غير الوحدة والضرب والتقريع، فهي إضافة إلى دمامتها المنفرة، اِمرأة عاقر. هجرها زوجها، التاجر الكبير، وصار يغيب عنها بالشهور، وتزوج عليها اِثنتين، لكنه أبقاها على ذمته إكرامًا لوالدها الذي شاركه قديمًا بالمال لإنجاز مشروع تجارة واسعة. ربما كان الزواج شرطًا لإتمام الصفقة!

زمت شفتيها في بلادة هي ترقب ما يدور في الشارع المكتظ بحوانيت العطارة والقماش. صياح الباعة هنا وهناك، والمشترون يتوافدون بلا توقف. كان الشارع عامرًا بالبشر والضوضاء، ومعبقًا بخليطٍ فريدٍ من روائح البهارات والحرير والعرق.

بغتة لمحت على ناصية الشارع القريبة رجلًا مهندمًا يتابع ما يدور حوله

بتكيز وشغف. بدا غريبًا عن المكان وغير مهتم بالبضائع المنتشرة في الحوانيت أو فوق الأرصفة. كان يتابع المارة والبائعين والزبائن وكأنه يبحث عن شخص بعينه! اِستوقفتها أناقته وجسده الممشوق وملامحه الجذابة. يا لامرأتك المحظوظة أيُّها الساحر! هكذا فكرت وهي تبتسم بخبث مسترجعة صورة (عاشور) بصلعته القذرة وكرشه المتدلي ورائحته النتنة.

وفجأة رفع الغريب عينيه الحادتين تجاهها. كان هذا هو (كاز)، يبحث عن ضحيته الجديدة!

قرأ (كاز) أفكار (فردوس)، واشتم في أنفاسها قهر مرير وحرمان بائس، فرفع رأسه أكثر، ومضى يحملق في وجهها من خلال فتحات المشربية. تواصلت روحه الشيطانية مع روحها الهشة الناقمة، وتدفق إلى ضميرها المتداعي وأحكم قبضته عليها. بعد لحظات، خلع طربوشه كاشفًا عن خصلات شعره الناعم ثمَّ أومأ برأسه وهو يبتسم.

تراجعت (فردوس) للخلف فزعة. الملعون، هل يراها من خلال فتحات المشربية؟!

اِبتلعت لعابها وتسارعت نبضاتها ودبت الحرارة في ثناياها جسدها البارد، ثمَّ اِقتربت بحذر من نافذة المشربية وفتحتها للخارج قليلًا. لم تحظ بنظرات ساخنة كهذه من قبل. لكم تود حرق (عاشور) البغيض حيًّا، ليته هنا يرى ما يفعله الغريب الوسيم معها كي يستشيط غضبًا ويتوقف قلبه القاسي عن الحياة.

تشجعت (فردوس) وبادلت الغريب الابتسام في خجل متوتر ثمَّ اِختفت من خلف فرجة النافذة. لا بأس من بعض اللهو، لا بأس من إذلال (عاشور) الطاغية وتلويث شرفه الغالي.

... وبعد دقائق اِنفتح باب الدار من الداخل!

تلفت (كاز) حوله، لا أحد منتبه. اِنزلق بخفة خلال أجساد البشر العابرة، ثمَّ دفع الباب الموارب ودخل في ثقة وأغلقه خلفه. كانت (فردوس) واقفة في ساحة المنزل تبتسم في بلاهة، وقد تسارعت أنفاسها، وبدا وكأن جسدها الممتلئ سينفجر أسفل ملابسها النسائية الضيقة.

اِبتسم (كاز) في عذوبة وهمس:

- مساء الخير، أعتذر عن تطفلي يا هانم، ولكني غريب عن الحي، وأبحث عن منزل المعلّم (جمال العطار).

ردت مرتبكة:

- لا أحد في الحارة بهذا الاسم.

- عجيبة، وهل تعرفين كل قاطني الحارة؟؟

قالها متصنعًا الانبهار فاتسعت اِبتسامتها أكثر وأومأت برأسها مؤكدة.

- رائع، دعينا إذن نراجعهم واحدًا واحدًا!

بهتت من إجابته للحظة، ثمَّ اِنتبهت أنه يمازحها، فأطلقت ضحكة خافتة وقالت:

- حسنًا، هيا.

- ولكن أولًا، أريد بعض الماء أيتها الفاتنة، فأنا ظمآن.

قال جملته هامسًا وهو يواصل بعينيه إشعال النشوة في عقلها. دنا منها أكثر فتراجعت للخلف خطوة متشككة، ثمَّ اِستدارت تهرول إلى جوف المنزل ضاحكة وهو وراءها. كانت مستعدة تمامًا لما سيفعله بها!

مضت ساعة قبل أن يفتح (كاز) باب الدار وهو يعدّل ملابسه، ويضع طربوشه فوق رأسه. تعمد أن يلقي في أحد الأركان منديلًا قماشيًا منقوشًا عليه

اِسمًا ذكوريًّا، ثمَّ اِنصرف في هدوء، بينما بقت (فردوس) مستلقية فوق فراشها تبادل السقف نظرات ذاهلة وهي لا تعي ما الذي فعلته لتوها!

ذاب (كاز) وسط زحام العابرين وعلى شفتيه اِبتسامة انتصار. لقد فاز لتوه بروح اِمرأة زانية ستشوى في الجحيم إلى الأبد، وربما حالفه الحظ وحظي بروح زوجها، إذا ما عاد ووجد المنديل المطرّز، واكتشف الخيانة المروعة، ثمَّ ذبح زوجته البدينة.

عمل متقن آخر!

***

اِنتهى الطبيب من فحص زوجة (مجاهد القناوي) وبدأ في كتابة الوصفة الطبية ثمَّ قال بلهجة متحفظة، تحمل في طياتها الكثير من المداراة:

- عال عال يا ست (فاطمة)، كل شيء يبدو على ما يرام.

لم يكنْ (مجاهد القناوي)، الكمسري بالسكة الحديد، يملك سوى خمسة قروش في جيب حلته، لكنه أخرجها مجبراً وأعطاها للطبيب الذي قلبها في يده ثمَّ هتف مبتسمًا:

- أنت تعلم أن أجر الزيارة المنزلية عشر قروش يا عم (مجاهد).

ابتسم (مجاهد) في حرج وتمتم وهو يداري نظراته بعيدًا عن عينيّ زوجته:

- معلش يا حكيم، أنا لا أملك غيرهم.

- وكيف ستشتري الدواء إذن؟

تنهد (مجاهد) وقال مبتئسًا:

- الله المستعان يا حكيم.

ضحك الطبيب وربت على كتف (مجاهد) وقال وهو يناوله القروش:

- خليهم معك، اشترى بهم الدواء وطعام العشاء، ويبقى لي عندك يا سيدي.

- كثرت ديوني يا حكيم.

- لا عليك، ولا تنسَ، لا بد للست (فاطمة) من الدواء والغذاء والراحة التامة، ليلتكم سعيدة.

اِنصرف الطبيب وبقى (مجاهد) واقفًا عند قدمي زوجته المنتفختين. السل ينخر عظامها وورئتيها وأحشاءها. المرض اللعين حرمها من الإنجاب، وحرمه من أن يكون أبًا أو حتَّى مجرد زوج.

سعلت (فاطمة) في وهن ثمَّ تمتمت وهي تلهث:

- عذبتك كثيراً يا (مجاهد)

- لا تقولي هذا يا بطة، أنت نعمة من الله

- نعمة؟ لتكفر بها عن ذنوبك، أليس كذلك؟

ضحكا سويًّا حتَّى اِنتابتها نوبة أخرى من السعال كادت أن تزهق روحها، فهمست بعد أن هدأت:

- حتَّى الضحك ممنوع عليّ!

دارى ملامحه الحزينة عنها ثمَّ هتف:

- سأذهب إلى الأجزخانة ثمَّ أشتري عشاءً شهيًّا، لا تنامي يا ولية، لن أتأخر.

اِنصرف مسرعًا قبل أن يسمعها تقول جملتها الشهيرة:

- لا تذهب إلى (المدعوقة) إياها!

هرول (مجاهد) على الدرج حتَّى خرج من البناية إلى الشارع. أنعشه هواء الليل البارد فشهق بقوة ورفع رأسه للسماء مستجيراً حائرًا، ثمَّ أطرق ومضى

يمشي على مهل، حتَّى ساقته قدماه إلى المكان الذي يتمناه بكل جوارحه، ويمقته ويخشاه في الوقت ذاته. قادته خطواته إلى الحانة أو (المدعوقة) كما تسميها (فاطمة).

***

مر الوقت سريعًا على (كاز) وحلّ الليل.

ورغم سعادته الطاغية بتجربته الجديدة إلَّا أنه شعر بالإرهاق يجتاحه. لقد هزمته إمكانات جسده البشري المحدود. لذا قرر أن يذهب إلى أول حانة يقابلها، كي يلتقط أنفاسه ويتذوق نبيذ البشر اللذيذ. لا ضير من بعض المتعة وسط أجواء العمل.

مضى نحو أطراف المدينة سالكًا طرقًا ترابية متعرجة، بين منازل بسيطة على الجانبين. لا يبدد الظلام من حوله سوى نور البدر الساطع، وبعض الضياء المتسرب من النوافذ المفتوحة. ولا يقطع الصمت غير نباح الكلاب وهي تتقهقر مذعورة حين تراه.

ليل الأرض بديع وسماؤها ساحرة وهي مرصعة بقرص القمر وفتات النجوم.

غريب أمر هؤلاء البشر، كائنات خبيثة مطرودة من الجنة وملعونة إلى الأبد. ورغم ذلك ما زالوا يتناسلون، ويمرحون، ويواصلون إغضاب الإله، وكأن الأمر لا يعنيهم. يبدو أنهم فقدوا الأمل تمامًا بالعودة إلى الجنة!

وأخيرًا وجد ضالته، فهناك على البعد لمح حانة صغيرة، تلتمع أضواؤها في خفوت، وتصدر من داخلها أصوات مكتومة لغناء وموسيقى وضحكات ثملة.

***

دفع (كاز) الباب الخشبي المتأرجح ودخل الحانة الصغيرة.

لفحته نسائم الهواء المشبعة بأدخنة التبغ، وعبق الخمور، ورائحة الشمع المحترق فتوقف ودار بنظره في المكان.

هناك مصابيح زيتية مثبتة على الحوائط، وشمعدانات مضاءة فوق طاولات مستديرة حيث يجلس السكارى ورفيقاتهم. كان المكان دافئًا ومصبوغًا بلون الضوء الأصفر.

يتصدر الحانة مشرب خشبي يقف وراءه رجل ضخم، حليق الرأس، وبيده قطعة قماش يجفف بها الأكواب الزجاجية الصغيرة، ثمَّ يرتبهم في صفوف أمامه. وبجوار المشرب جلس مطرب له صوت أجش، يمسك عودًا يضرب أوتاره في اِنسجام، وهو يردد أغنيات خليعة، وسط ضحك الغانيات وصيحات السكارى.

عبر (كاز) بين الجذوع المتمايلة، واقترب من المشرب، وجلس على كرسي خشبي مرتفع بلا ظهر، ثمَّ طلب كأسًا من النبيذ المعتق. نظر للكأس لثوان ثمَّ جرع ما فيها دفعة واحدة. أغمض عينيه وهو يستشعر المذاق القوي للشراب يكوي لسانه وجوفه، ثمَّ أحس بخدر لطيف يسري في جسده كله. فتح عينيه وابتسم، لقد أعجبه الأمر. الخمر نعمة إضافية يجب أن يحسد عليها البشر!

أشار (كاز) للساقي أن يملأ الكأس ثانيةً، قبل أن يسمع من خلفه نحيبًا ذكوريًّا خافتًا مختلطًا بضحكات نسائية مجلجلة!!

اِلتفت خلف كتفيه ببطء، قبل أن يضم حاجبيه في دهشة وهو يرى أمامه مشهد غريب لم يتوقعه!

لحظة الحقيقة، داخل حانة!

حدق (كاز) فيما خلف كتفيه فشاهد رجلًا أربعينيًّا متينًا، أسمر البشرة، يرتدي حلة باهتة، ويجلس خلف طاولة خشبية صغيرة. عيناه مبتلتان بالدموع، ويسراه تقبض على عنق زجاجة خمر، وإلى جانبه جلست اِمرأة ممتلئة تناغشه وتهمس في أذنه وهي تضحك. رأى شياطين كثر يحومون حوله، وهم يشربون خمره ويعبثون مع رفيقته!!

ما الذي يدفع ذلك الرجل للنحيب؟؟ هناك شيء غير مفهوم يحدث هنا.

ألهب المخمور الباكي فضول (كاز) فنهض من مقعده واقترب منه، وعيناه الشيطانيتان تتوغلان داخل روحه وتقرآن أفكاره. بداخل الرجل مزيج متأجج من الغضب والسخط والنكران، وكثير من الذل والحاجة والانكسار، نظراته الرطبة تحدق في خواء نحو زجاجة الخمر، وطرف لسانه المستتر خلف شفتيه يتمتم مستغفرًا الإله ويطلب عفوه!!

روحه شفافة، تسطع بنور صاف، تتألم وهي تقاوم ضعف جسده ورضوخه الذليل للشيطان الجالس فوق كتفيه.

فتح (كاز) عينيه البشريتين ذاهلًا، آدمي عاص يملك روحًا طيبة؟! أي عبث هذا؟؟

لقّنوه في الحظائر أن بني (آدم) غشاشون، وكاذبون، وفاسقون. علّموه أن أرواحهم قاتمة، ونفوسهم جشعة، وأنهم سيعذبون حتّى آخر رضيع فيهم. هذا السكير بداخله مقدارين متماثلين من الندم والفجور. في نفس المكان وذات اللحظة يفعل النقيضين. أهكذا يرضي ربه ويتملقه؟ يعصيه ثمَّ يستغفره؟؟ ياله من منافق كاذب!

لكنها أول مرة ينظر فيها إلى روح آدمية متألقة متوهجة. كل من رآهم سابقًا كانت أرواحهم خابية ونفوسهم معتمة. هل هناك نوع مغاير من البشر لم ينتبه إليه؟ أم أن غشاوة ما قد اِنزاحت عن بصيرته، فأصبح يرى البشر بشكل مختلف؟! هكذا فكر وهو يقترب أكثر من السكير.

أرخى ربطة عنقه قليلًا ثمَّ جذب مقعدًا وجلس قبالة الرجل، وهتف بصوت أعلى من الصخب حولهما:

- أنت، يا هذا!

اِلتفت اليه الرجل، ثمَّ اِعتدل بسرعة في جلسته وصاح غاضبًا:

- من أنت؟ وكيف تقتحم جلستي الخاصة هكذا؟ اِنصرف حالًا.

اِبتسم (كاز) وقال محاولًا تلطيف الأمور:

- سمعتك تبكي فأردت أن أطمئن عليك، الناس لبعضها يابن عمي، هل أنت بخير؟

ضرب الرجل بكفيه الغليظتين على الطاولة وصاح:

- وما لك أنت يا بارد، أبكي أم أرقص، غور من هنا!

فتش (كاز) في عقل الرجل عن أية معلومة قد تفيده ثمَّ هتف:

- أنت (مجاهد القناوي)، وتعمل محصلًا بالسكة الحديد، ألا تذكرني؟ لقد تقابلنا وتحدثنا سويًّا منذ أسبوعين داخل القطار، كنا عائدين من (دمنهور).

- لا أذكرك، وحتّى لو كنا تقابلنا، هذا لا يعطيك الحق أن تقتحم طاولتي هكذا.

- روق بالك يا عم (مجاهد)، خذ، عفّر!

اِلتمعت عينا (مجاهد) عندما أخرج (كاز) من جيبه علبة مذهبة فاخرة، ثمَّ فتحها وأخرج منها لفافة تبغ ومد يده بها. اِلتقط (مجاهد) اللفافة وتمتم بعد أن أشعلها له (كاز):

- متشكرين يا سيدي، ماذا تريد الآن؟

- أعرض عليك عربون صداقتي وأعوضك عن مضايقتي لك، كل ما تطلبه أنت والهانم على حسابي.

اِبتسمت المرأة في توجس، وهز (مجاهد) رأسه الضخم مستسلمًا، ثمَّ هتف:

- مشكور يا سعادة البيه، لكن لِمَ هذا الكرم؟

- عندي أسئلة أريد إجابات لها يا عم (مجاهد)، ممكن؟

رغم غرابة الطلب، وسخافة الضيف وفضوله اللزج، إلّا أن (مجاهد) يحتاج حقًّا للمال. (فاطمة) طريحة الفراش، تنتظر الدواء والطعام، وهو مفلس أخرق. سيوفر على الأقل قروشه الخمسة. فتنهد وقال مستسلمًا:

- حسنًا، هات ما عندك، اسأل!

قضبت المرأة حاجبيها في دهشة من تبدل موقف رفيقها، وابتعدت عنه قليلًا، وهي تراقب ذلك الحوار المريب. اِبتسم (كاز) وقال بلهجة واثقة حانية:

- أنت مسكين يا صديقي، حياتك صعبة وحزينة، زوجتك طريحة الفراش وأنت لا تملك مالًا يكفي لعلاجها، أليس كذلك؟

همس (مجاهد) مشدوهًا:

- وكيف عرفت هذا؟ أكيد أمها الحرباء هي من سلطتك عليّ.

- لا، أنت أخبرتني بهذا في لقائنا العابر.

- حقًا؟ لعنة الله على الخمر التي مسحت ذاكرتي.

- ولم تشربها إذن؟ ألم ينهك الله عنها؟

رفع (مجاهد) كتفيه علامة قلة الحيلة فمال عليه (كاز) أكثر وهمس:

- أو ربما، تلك هي طريقتك لتعترض على ما يفعله بك.

حملق (مجاهد) للحظة في وجه (كاز) ثمَّ تمتم غير فاهم:

- أعترض على من؟

- على الله، هو يعطيك حياة تعسة وأنت بالمقابل تعصيه.

- طبعًا لا، أستغفر الله، أنت مجنون بالتأكيد، من أنا كي أناطح الله؟ على العكس، أنا أحبه كثيراً.

- ولم تحبه؟، على الفقر والمرض والشقاء؟

نفرت عروق (مجاهد) وصاح بحدة:

- لا يجب أن تتحدث هكذا، الله رحيم، إنه يعطينا الحسنات مقابل ما نعانيه.

- ألا توجد طريق أسهل لكسب الحسنات؟

- هكذا هي الحياة، مليئة بالمعاناة والاختبارات القاسية، ومن يصمد يفز بالجنة في النهاية، هكذا قال لي شيخ الجامع.

ضحك (كاز) ساخرًا وقال:

- وهل تأخذ حسنات إضافية على شرب الخمر؟

زفر (مجاهد) بضيق ثمَّ تمتم:

- حياتي قاسية جافة، والخمر تسري عني وتساعدني على النسيان.

- ألا تخاف من عقاب الله يا عم (مجاهد)؟ كيف تحبه ثمَّ تعصاه؟

صمت (مجاهد) قليلًا وهو يفكر ثمَّ همس:

- أعرف أنه غاضب مني وربما يعذبني، لكنه في النهاية سيرأف بحالي ويعفو عني، فأنا عبده.

- ألهذا كنت تستغفره قبل قليل؟

حدق (مجاهد) متشككًا في عينيّ (كاز)، وشعر بقشعريرة باردة تكهرب ظهره، فهمس مرتابًا:

- أنا كنت أستغفره في قلبي ولم أنطق بحرفٍ، كيف عرفت؟

- أنت مخمور ولا تدري ماذا تقول، لقد كنت تهذي بصوتٍ عال.

حرك (مجاهد) يسراه في الهواء بغير إتزان، وهتف:

- لا، هناك سر، أنا متأكد، من أنت يا هذا؟ هل أنت ساحر؟؟

مال (كاز) عليه وقال بحسمٍ:

- سأدفع ثمن كل شيء كما وعدتك بل وأعطيك مالًا إضافيًّا، فقط أجب على أسئلتي.

اللعنة على مهانة الاحتياج والعوز! هذا فكر (مجاهد) وهو يمسح العرق عن وجهه بكفيه ثمَّ هتف في غيظ:

- أيا من تكون يا هذا، لا تختبر صبري أكثر، أمامك دقيقة واحدة.

أومأ (كاز) برأسه موافقًا ثمَّ قال:

- إن كنت متأكدًا هكذا من رأفة الله وعفوه، لم كنت تبكي؟

- أبكي لأني تعيس وضعيف، قبل أسبوعين عاهدته ألا أعود لهذا المكان مرة أخرى، قاومت كثيراً ولكني بالنهاية فشلت، أبكي لأني لا أستحق عفوه ورحمته.

- أنت لا تكف عن ذكر عفوه ورحمته، كيف تعرف أنه سيعفو ويرحم؟ من أين أتيت بهذا اليقين؟

- كل الناس تعرف هذا، أنه مكتوب في القرآن، وموجود في كل كتب السماء.

اِرتعد جسد (كاز) للحظة. القرآن وكتب السماء؟؟ إنها من المحرمات عليهم. لقد كتبتها الملائكة بالسحر القديم وإن قرأها سيحترق.

اِستجمع (كاز) شجاعته وهمس ل(مجاهد):

- ألا تعلم أن البشر ملعونون، ومطرودون من الجنة، ومصيرهم إلى الجحيم مهما صبروا واستغفروا؟ لا وعود بالعفو أو الرحمة، لا أمل بالنجاة يا (مجاهد)!

ركل (مجاهد) الطاولة بقدمه وأوقع كل ما عليها محدثًا جلبة عالية، فرت على أثرها رفيقته وغابت وسط الزحام، ثمَّ نهض غاضبًا مترنحًا وكور قبضته في الهواء وقال ل(كاز):

- أي دين ذلك الذي تتبعه أيها الملعون؟ لقد عكرت مزاجي بأسئلتك السخيفة وآرائك الحمقاء، أنت شيطان بالتأكيد! لولا أني أكره المبيت بالسجون لكنت حطمت وجهك، ادفع ثمن كل شيء كما وعدت ودعني وشأني.

ثمَّ وضع طربوشه فوق رأسه، واتجه مبرطمًا متمايلًا ناحية باب الخروج، وهو يصطدم بالطاولات والزبائن في طريقه، بينما بقى (كاز) مكانه شاردًا يفكر. من أين لذلك الآدمي هذا القدر من الندم والأسف على أخطائه؟ وكيف

يوقن بالمغفرة والنجاة إلى هذا الحد؟ ما رآه يؤكد أن (مجاهد) لم يفقد الأمل في عفو الإله، بل يحيى على يقين راسخ بهذا العفو!

ثمَّ ماذا لو تركته الشياطين لحاله ولم تسرِ في عروقه وتلهب شهواته، هل كان سيعصي الإله وقتها؟؟

تمنى لو قرأ كتب البشر المقدسة وعرف ما تحويه من أسرار، أتراها تختلف عن مخطوطات (إبليس)؟؟

اللعنة، ماذا ألم به؟؟ إنه ما زال في ليلته الأولى على الأرض!

لا بد أن يواصل مهمته المقدسة، لا يجب أن يلهيه أي اِستثناء عابر عن الحقيقة الراسخة.

كل البشر بغيضون. كلهم أعداؤه ويجب أن ينتقم منهم لا أن يشفق عليهم ويأخذ صفهم.

ثمَّ نهض وغادر الحانة، وغاب في ظلام الطرقات.

بذرة الشك!

القاهرة 1920 بعد الميلاد.

لم تستطِعْ (سيرا) التغلب على اِشتياقها ل(كاز)، اِفتقدته سريعًا بعد عدة ساعات!

دارت في نواحي المدينة تبحث عنه حتَّى عثرت عليه، وبقت تراقبه عن بعد تحت أستار الظلام. رأته يدخل حانة ثمَّ يخرج منها عابسًا. أخبرها حدسها أن هناك أمر يجري مع رفيقها الجديد، أمر مقلق، لكنها لم تستطِعْ تحديده.

وعلى الرغم من شغفها لتعرف ما الذي يحدث، لكنها قررت ألَّا تقتحم عليه تجربته الجديدة. يبدو عليه الاستغراق فيها حتَّى أطراف قرنيه!

لا بد أن تنال ثقته ورضاه أولًا حتَّى لا ينفر منها، لكنها لن تتركه يغيب عن نظرها، فهو ما زال يفتقد الخبرة بالأرض وقد يلقي بنفسه في تجربة تقضي عليه.

الآن تراه يحوم حول مبنى أبيض تحوطه حديقة صغيرة. كانت مستشفى. تلك الأماكن عامرة بالآلام والمعاناة والتضرع إلى الإله. التضرع الذي يظنه البشر طريقً إلى رحمة الإله وسببًا في شفائهم والعفو عمَّا أصابهم.

المجنون! ماذا سيجني من مكان كهذا؛ مملوء بالتسابيح والصلوات والملائكة؟؟ سيلقى حتفه إن اِستمر بهذا التهور.

لم تعرفْ الجواب، لكنها بقت على البعد، تراقبه في تحفز، علّه يحتاج إلى العون في أية لحظة.

***

جلست (سحر) على حافة الفراش، في غرفة صغيرة بالمستشفى، تراقب زوجها الشاب وهو مسجي هزيلًا مغمض العينين، وأنفاسه اللاهثة تعافر في تيه صدره كي تدخل وتخرج.

شابة عشرينية، شاحبة البشرة، شعرها الأسود معقوف خلف رأسها في ذبول، وعيناها منتفختان من كثرة البكاء. منذ يومين فقط، كانت اِمرأة سعيدة تملك كل شيء؛ زوج محب، وطفلة رقيقة كالفراشات، ومنزل دافئ تغمره المودة والفرحة والأمنيات السعيدة.

صباح الأمس مرضت (أسماء)، طفلتها الصغيرة، ذات الأعوام الخمسة. ضربتها حمى شديدة، واشتكت من ألم في حلقها وصداع في رأسها، ثمَّ ماتت آخر الليل!

هكذا، بكل بساطة، رحلت زهرتها البيضاء عن الدنيا، وبلا سابق إنذار أو تنبيه.

وفي ذات الليلة الملعونة، وعند سماعه الخبر المشؤوم، هوى زوجها عند قدميها. قال الأطباء أن قلبه المكلوم لم يتحمل الصدمة، وأن الأمل في شفائه معدوم.

خلال سويعات قليلة فقدت كل شيء، وبقت وحيدة، تلملم أحزانها فوق جزعها وقلة حيلتها، لتخبئهم في قلبها المملوء بالعجز والتعاسة.

كان (كاز) معها في الغرفة، جاثمًا فوق كتفيها، قابضًا على رأسها، هامسًا داخل ثنايا عقلها المفتوح على مصراعيه.

أحقًا ما يحدث لها ؟؟ ما زالت لا تصدق ولا تستوعب ما يجري.

هي المرأة التي تحب الخير للجميع. هي البارة بوالديها وإخوتها. هي التي تصلي، وتصوم، وتتصدق. ألم تفعل من الخير ما يضمن لها معاملة مختلفة وأقدار أخف وطأة؟ أي ظلم قبيح فعلته في دنياها لتكون تلك هي العاقبة؟ أهكذا يُجازى المؤمنون الصالحون الأوفياء؟

ظلام الغرفة يخفي ملامحها الجامدة، لكن شعاع القمر الفضي كان يلتمع فوق حدقتيها الشاخصتين وكأنهما في عالم آخر بعيد، مقاومتها شبه معدومة، لذا لم يجد (كاز) أدنى صعوبة في التسلل إلى أعمق نقطة في دهاليز ضميرها.

كان يعرف طريقه جيدًا، فقد أحسنوا تدريبه منذ صغره. علموه كيف يوسوس في الآذان، وينفذ إلى الأفكار، ويكمن في القلوب، ويسري في العروق، علموه كيف يقبض على فريسته ويكبلها جيدًا ثمَّ يفتك بها بلا رحمة!

تحلقت مجموعة من الملائكة المسبحين حول (سحر)، ورفعوا أجنحتهم بالدعاء، لكنه لم يبالِ بهم واستمر في تشبثه ب(سحر). لن يجعل تردده العابر في الليلة الفائتة ينسيه واجبه.

إنه ينشد التحدي الأعظم والنجاح الأروع لأي شيطان. أن يجعل واحدًا من نسل (آدم) يكفر بالإله بلسانه وبقلبه. فهذا هو المعيار الأعلى للبراعة وإتقان العمل!

طالما سمع عن كبار الشياطين يقومون بهذا العمل الفذ. لم لا ينضم إليهم ويصير واحدًا من الكبار؟ سيرفع الملك الطيب من درجته بالتأكيد، وربما يلحقه بفصيل آخر أفضل من البنائين.

(سحر) فريسة مثالية؛ حزينة مرتبكة، وتشعر بالظلم والانكسار.

ترك (كاز) كتفيها وانسل بكامله إلى جوفها. جال في عقلها، وسبح في دمائها، وأحكم قبضته على قلبها. تحول إلى فكرة تدور داخل ضميرها المتشقق المتداعي. تحول إلى ثورة، إلى سيل هادر، إلى رغبة في كسر القيود والتمرد والصراخ.

من بَقِيَ لها؟، لا أحد.

البيت الخاوي يناديها، والفراش البارد صار ملكها وحدها.

ملابس الفتيات المبعثرة في غرفة (أسماء) ما زالت تحوي رائحتها وبقايا أنفاسها. أي إرث بغيض هذا الذي ينتظرها فاتحًا ذراعيه، ليضمها طيلة سنوات العمر الباقية.

تبدلت ملامح وجهها من الجمود إلى الحنق، ورفعت نظرات عابسة دامعة إلى سقف الغرفة، كادت أن تقول شيئًا لكنها أشاحت بعيدًا والتزمت الصمت على مضضٍ.

اللعينة ما زالت تقاوم، ما زالت روحها الرقيقة الرطبة تجاهد.

كيف تعود بالزمان إلى الوراء، أو كيف تجعله يمضي سريعًا للأمام حتَّى تنتهي حياتها؟

أي خلل من شأنه تقويض أركان الكون المهيب لو نجت اِبنتها وبقى معها زوجها؟ أي حكمة تكمن في تحطيم فؤادها وإغراقها بقية العمر في تعاسة وشقاء؟

نهضت من جلستها ودارت في الغرفة كالمجنونة.

.... ما زالت تقاوم!

اِستحضر (كاز) كل قواه وضغط أكثر على قلبها وملأه بالسواد والازدراء والغضب. أنفاسها الضحلة تتسارع مخنوقة وقلبها المرتجف ينبض مسعورًا. رفعت عينيها الغاضبتين مجددًا إلى الأعلى، وأشارت بسبّابتها المرتعشة.

ستقولها الآن. ستصرخ في وجه الإله وترفض حكمه وقضاءه. الآن ستكفر إنسية!

بقت (سحر) شاخصة ببصرها للأعلى كالمصروعة. اِحتقن وجهها، وفتحت فمها وارتعشت شفتاها، ثمَّ، أرخت ذراعها وهوت على الأرض ساجدة باكية!

سجدت طويلًا وعلا صوت نحيبها وهي تستغفر الإله وتطلب عونه ونجدته.

وبعد دقيقة جلست ومسحت وجهها المخضب بالدموع، ورفعت عينيها، وفي نظراتها اِمتزجت اللوعة والاستغاثة بالحمد والقبول، ثمَّ تمتمت بصوت هامس رائق بكت له الملائكة من حولها:

- يارب!

اِرتج (كاز) بكيانه كله وانتفض خارجًا من جسدها. اِلتصق بسقف الغرفة مذهولًا مرتبكًا، وهو لايصدق أن الإنسية أفلتت منه.

اللعينة، لقد كادت أن تلفظها، لقد كادت أن تكفر، ماذا حدث؟؟!

بغتة، اِقتحمت الغرفة كتيبة من حراس الملائكة الأشداء، لتحصد أرواح الشياطين. وتحولت الغرفة الهادئة حول (سحر) إلى ساحة معركة طاحنة مدمرة!!

اِندفع (كاز) من فوره خارج المستشفى هاربًا. كان مرتجفًا مشوشًا مذعورًا لا يدري ماذا يفعل.

رأى (سيرا) تهرع ناحيته. لم يعرف كيف أتت ولا من أين ظهرت، فقط تركها تسحبه سريعًا ليختفيا في جوف السماء المظلمة قبل أن تفتك بهما الملائكة.

***

مر الشهر الأرضي سريعًا على (كاز)، وتبقت له أيام قلائل على مغادرة الأرض، لقد سرقه الوقت!

لم تتركه (سيرا) بمفرده وهو لم يمانع في بقائها معه. لم تسأله عما حدث داخل الحانة والمستشفى، واحترمت صمته الذي طال لأيام.

اِصطحبته في جولات للعمل الخفيف كعادتها، حتَّى اِستعاد عافيته من جديد. لم يفعل الكثير مما خطط له مسبقًا، لكنه عبث بعقول العشرات من البشر وساهم في أكاذيب، ومشاحنات، وسرقات عديدة. ومع مرور الأيام تناسى خساراته القليلة، فقد فعل كل ما يجب عليه أن يفعله شيطان غض في أول زياراته للأرض.

وفي ليلة شتوية باردة، ينيرها القمر الذي قارب على تمام الاستدارة، وبعد أن تسكعا طويلًا في طرقات المدينة بهيئتهما البشرية، اِتجها نحو شاطئ النهر وجلسا، في بقعة نائية غير مأهولة، يراقبان في صمت تيار الماء الأسود وهو يجري وفيراً محملًا بالطمي والعشب.

تركت (سيرا) العنان لشعرها الأسود يشاكس الهواء كعادته بينما خلع (كاز) طربوشه عن رأسه، وشمّر قميصه الأبيض. اِبتسمت وقالت وهي تنظر إلى عمق عينيه:

- ألن تخبرني ماذا حدث معك في يومك الأول؟ في الحانة مثلًا!
- هل كنت تراقبينني؟
- عن بعد، أردت فقط أن أطمئن عليك.

قضب حاجبيه، لم يفهم ما تعنيه بجملتها تلك، لكنه أجاب:

- قابلت آدميًا يشرب الخمر ومعه ساقطة، بينما يستغفر الإله بقلبه ويبكي.

قالت وهي تسند رأسها على كتفه:

- إنه أحمق!

- أخذ يشرح لي كيف أنه يحب الإله ويرجو عفوه.

- كلهم يقولون نفس الكلام، لم يتغيروا منذ آلاف السنين، ألا يعرفون أن الإله غضب عليهم، وطردهم من جنته، وتوعدهم بالجحيم؟

- لكنه قال أن الإله وعدهم بدخول الجنة.

أبعدت رأسها عن كتفه، وقالت متعجبة:

- وهل صدقته؟

- كان بداخله يقينٌ عجيبٌ، وروحه متأججة كالنجوم، صدقيني.

- لا تجعلهم يخدعونك، لقد أخرجوا (إبليس) الطيب من الجنة قديمًا، لا تنس هذا.

لم يجد جوابًا مقنعًا يرد به على ما قالته، فصمت وعاد ينظر لجريان النهر من جديد.

- والمستشفى، ماذا فعلت هناك؟

قالتها سيرا وهي تمسح على كتفه فهمس مداريًا نظراته عنها:

- زوجة شابة ماتت اِبنتها الوحيدة وزوجها يُحتضر، و لم أستطعْ أن أجعلها تكفر.

صاحت ذاهلة:

- أكنت تريدها أن تكفر؟ لقد بددت طاقتك هباءً يا مسكين، الأمر يحتاج إلى خبرة وتجربة، وأنت ما زلت صغيراً على أمر كهذا.

- لا، الأمر ليس متعلقًا بي، أي شيطان مكاني كان سيفشل، إنهم يحبون الإله وعندهم يقين راسخ بالعفو، هذا غير الملائكة التي تدافع عنهم وتستغفر لهم في كل مكان، الأمر أكبر من مجرد تحالف قديم بين الإنس والملائكة، هناك أمر حتمًا نجهله، هناك سر مدوّن في كتبهم المقدسة!

هتفت باستياء:

- أتريد أن تتأكد وتفتح كتبهم؟ أتريد أن تحترق؟

- وهل حقًا سأحترق؟

- هذه كتب مسحورة كتبتها الملائكة.

- يعني كل الكتب المقدسة التي بحوزة البشر مزيفة ولم يكتبها الإله؟

- إنه ليس بكلام الإله، الإله ناقم على (آدم) وبنيه.

- ولماذا يبعث فيهم الرسل إذن؟ لماذا يحاول هدايتهم؟

- من قال هذا؟؟ ألم تقرأ مخطوطات (إبليس)؟ البشر هم من يروجون لهذه الترهات، الإله لم ينزل عليهم رسلًا، الملائكة تساعد بعض البشر بالسحر ليصنعوا معجزات كاذبة، ويألفون لهم مخطوطات تبدو وكأنها من كلام الإله، هكذا تسير الأمور.

- والإله لا يدري شيئًا عن كل هذا؟؟

- أجل.

رفع كتفيه وتمتم:

- .... ربما!

ساد الصمت بينهما طويلًا. وفي النهاية التفتت إليه، وقالت حانية:

- ماذا ألم بك؟ هذه أول زيارة لك للأرض، مجابهة البشر ليست هينة كما تبدو، إنها تجربة عميقة وقاسية رغم متعتها، فتمهل ولا تقسو على نفسك.

اِستدار بكامل جسده تجاهها، وقال في تخوف:

- لا أدري لم وثقت بك وصارحتك بكل شيء، أنتِ لن تخبري أحدًا بما نتحدث فيه الآن، أليس كذلك؟

اِبتسمت وهي تربت على كفه:

- بالطبع لن أفعل، سيكون في هذا نهايتي قبل نهايتك.

- أشكرك.

- ولكن إن بدأت البحث في مثل تلك الأمور لن تستطيع التوقف، ستجذبك الشكوك إلى داخلها أكثر وأكثر، صدقني، إن لم تتوقف الآن ستكون قد بدأت رحلتك نحوالهلاك!

همس وهو ينظر في عينيها:

- من أنتِ حقيقةً؟ ولم تعرفين كثيراً من الأشياء؟

- ربما لأني أكبرك بخمس سنوات نجمية كاملة أيُّها المتحذلق.

هتف متعجبًا:

- وأين كنت قبل الآن؟ لم ألمحك طوال سنواتي السبع في القطيع.

- لقد مللت الحياة في قطيعي، فتركتهم وقررت أن أجرب الحياة مع قطيع آخر، أنا معكم منذ سنة نجمية كاملة.

- هذا ألف عام بعمر البشر، عار عليّ أني لم أرك قبل الآن!

صمتت مبتسمة، ثمَّ تلونت ملامح قناعها البشري بالجدية وقالت:

- أنا أتابعك منذ جئت إلى قطيعكم، هناك شيء بداخلي أخبرني أني لن أكون لغيرك، هل تقبلني خليلة لك؟

تأمل بعينيه ملامحها الشيطانية الساحرة القابعة خلف ردائها البشري ثمَّ همس:

- بالطبع أقبل.

تنهدت وافتر ثغرها عن اِبتسامة رضا ثمَّ همست في دلال:

- دعنا إذن نتذوق حلاوة العشق كما يفعل البشر.

ضحك واحتضن كفيها، وهو يرى جذوة الشهوة في عينيها، ثمَّ همس:

- وبعدها؟

- لنكن أي شيئين آخرين، لنكن قطّين، أو ذئبين، أو ثعبانين!

- هيا بنا إذن.

ضحكا بصخب، قبل أن ينهضا ويختبأا وراء عشبة كثيفة على جانب النهر الثائر.

***

منتصف الشهر القمري.

صفحة السماء صافية، وفي وسطها يبدو وجه القمر المكتمل وكأنه شمس صغيرة.

وفي عالم محيط بالبشر، عالم بأبعاد مغايرة وفيزياء مختلفة، تراصت صفوف الشياطين في نفس البقعة الخالية من الصحراء المقفرة. كان هذا هو موعد قدوم الأفواج الجديدة لتغزو الأرض، وموعد رحيل الأفواج القديمة لتعود إلى البناء والتشييد.

فُتحت البوابة المتوهجة. خرج الجلادون الغلاظ أولًا وانتشروا على هيئة صفين طويلين، ثمَّ بدأت أفواج القادمين في الولوج إلى الأرض، وبعدها بدأت جموع الشياطين المسافرة في الرحيل صوب كوكب بعيد.

وفي قلب زحام الأجساد المجنحة السوداء، سار (كاز) صامتًا، مأخوذًا بأفكار مضطربة وأسئلة غامضة تفيض في عقله، وهو لا يملك لها جواب.

(هل حقًا سيحترق إن فتح كتب البشر المسحورة وقرأ ما تحويه؟).

(هل حقًا ما يدعيه البشر بأن الإله ليس بغاضب عليهم وأنه وعدهم بالغفران؟).

(وماذا عن حلمه وحلم جميع الشياطين بالعودة إلى الجنة؟).

راقبته (سيرا) في صمت، وفي نظراتها مشاعر جديدة عليها. لا تعرف ما الذي قلب كيانها هكذا. قلقة، ومتوترة، وتخاف أن يحدث له مكروه. تود لو ظلت محملقة في وجهه إلى الأبد.

كانت تغمرها وتسيطر عليها أحاسيس غير مألوفة بين جموع الشياطين. فلم يسمعْ أحد قبل الآن عن شيطانة وقعت في الغرام!

أعراض غريبة!

كوكب مقفر آخر، له قمران ساطعان، يبدوان في سمائه الحمراء كعينين واسعتين، ترقبان كل من على سطحه بلا كلل!

الأعاصير الشرسة تدور كأقماع شاهقة متمايلة، تقتلع الأتربة والأحجار، وتلقيها إلى قلب السماء.

وتحت صياح الجلادين الهادر، بدأ فوج الشياطين القادم لتوه من الأرض في التمركز أمام طود عريض شامخ ومن ثمَّ في تحطيم صخوره، وصقلها، ووضعها فوق بعضها، كي تشكل رمزًا جديدًا للملك الطيب.

صرخات الجلادين المرعبة، ولسعات سياطهم المؤلمة والشرارات الضخمة التي تخرج من رؤوس حرابهم، كل هذا ألهب حماسة جحافل الشياطين، وأشعل خوفهم، ومحى أية أفكار قد تراودهم للتراخي أوالكسل.

ناولت (سيرا) صخرة ضخمة ل(كاز)، فحملها عنها ثمَّ خفق بجناحيه بقوة، مقاومًا تيارات الهواء العنيفة، وارتفع ووضعها بحرصٍ فوق صفوف الحجارة الأخرى. هرع إليه عشرة شياطين آخرين يساعدوه على تثبيت الصخرة، قبل أن يتركهم ويعود إلى حمل المزيد.

مرت دورتان كاملتان للقمرين حول الكوكب قبل أن يأمر الجلادون الجميع بالتوقف لوهلة يسترجعون فيها قواهم.

شق (كاز) طريقه بين زحام الأجساد السوداء المكدسة حتَّى وصل إلى (سيرا) وأسند ظهره جوارها، ثمَّ أحاطها بجناحه. ضحكت وحملقت في وجهه، وتردد صوتها في عقله:

- سيبدأون في التكلّم عنا أيُّها العاشق المتيَّم.

- ماذا عساهم يقولون؟

- أنثي (كاز) الجديدة، الغريبة عن القطيع.

- بل سيقولون (كاز) المحظوظ، فاز بأجمل بنات (إبليس).

لم تعقّب، فقط رفعت عينيها إلى السماء الحمراء المرصعة بآلاف النجوم المتلألأة من فوقها. تمنت للحظة لو اِستطاعت الفرار من كل هذا العناء والبقاء مع (كاز) بمفردهما حتَّى نهاية الزمان. يكفيها ما عانته في حياتها السابقة من عذاب، وهروب، وخوف.

كم تود لو أخبرته حقيقتها!

لقد حالفها الحظ في أن تبدأ من جديد، ولا بد أن تتمسك بالفرصة، فهي لن تتكرر ثانية، أو ربما ما حدث قديمًا ليس حظًا، لعل هناك من يدبّر لها شيئًا مميزًا.

مالت عليه أكثر وهمست:

- أما زلت تفكر في ما كنا نتحدث عنه على الأرض؟

- ششششت!! لو سمعك أحد ستكون كارثة.

- لن يسمعنا أحد.

- لا تفتحي الموضوع ثانية، لم أعد أفكر فيه.

- أنا أخاف عليك، لا تتحدث في مثل هذه الأمور مع أحد غيري.

نظر (كاز) لها بدهشة ثمَّ هتف:

- تخافين عليّ؟، أنا لا أفهم كلامك.

- أعني أنك لو أردت أن تتكلم فأنا موجودة كي أسمعك.

- أنت تتصرفين بغرابة!

لم ترد عليه، فقط أطرقت وتمتمت شاردة:

- وأنا كذلك أجدني غريبة، وأقول كلامًا غير مفهوم، لا أدري ماذا دهاني

- هل أصبحتي مثل البشر تمرضين؟

- لا تخف، أنا بخير.

- حسن أيتها الغامضة، يجب أن أذهب، الحمقى يشيرون باستئناف العمل.

- اسمع، موعد الراحة التالي سنذهب خلف الصخور القريبة لنلهو قليلًا.

ضحك ونهض من مكانه، دار في السماء فوق رأسها، تحت أنظار الجلادين الصارمة، قبل أن يغيب وسط جموع البنائين لينخرط في العمل.

حاول (كاز) أن يبعد عن ذهنه ذلك السؤال المُلح: ماذا سيحدث لو قرأ كتب البشر؟ وهل يستحق الأمر أن يخاطر بحياته ليجرب شيئًا كهذا؟؟

حاول بشتى الطرق أن يخرج ذلك الهاجس من رأسه، ولكنه لم يفلح!

***

الكوكب الأحمر، ذو العينان الصارمتان، ما زال غاضبًا ومليئًا بالزوابع والأعاصير.

بدأت ملامح الصرح تتضح شيئًا فشيء، بدا كتلّةٍ عالية من الصخور المكدسة فوق بعضها، وتنتهي بما يشبه القرنين!

ما زالت (سيرا) تقطع الأحجار مع زميلاتها، بينما (كاز) هناك مع زملائه يساعد في تثبيت البناء، كانت تعلق أبصارها عليه بشغف أينما ذهب.

عاشت في قطيعها عشرين عاما نجمية. عرفت كثيرًا من ذكور الشياطين،

وأنجبت صغيرين. زارت الأرض عشرات المرات تدبر المكائد والمصائب لنسل (آدم). طالما كانت شيطانة مخلصة ومثالية

ثمَّ حدث ما حدث!

أمضت بعدها أربع سنوات وحيدة تائهة، تفر من مكان إلى مكان، إلى أن حطت رحالها في قطيع (كاز) وذابت بين جموع الشياطين. حينما سألوها من أنتِ؟ قالت أنها رحلت من قطيع آخر بعيد. لم يهتموا بتصديقها أو تكذيبها، فقط أدخلوها بينهم.

وعندما رأت (كاز) فتنها، سرت في جسدها رعدة لم تألفها من قبل، فقررت أن تكون له. لم تجرب مشاعرًا كهذه أبدًا، ولا تعرف كيف تفسر تلك الغبطة المختلطة بالاشتهاء حينما تراه!

اِلتفت إليها (كاز) في خضم عمله، وسط المئات من الشياطين، ورآها تحدق فيه، فتوقف ونظر إليها عبر زحام الأجساد العابرة وزوابع الرياح المحملة بالغبار.

أعاق وقوفه المفاجيء حركة البنائين فاصطدم به أحدهم، وهوى الحجر الذي يحمله وارتطم بأرض الكوكب، وحدثت بعض الجلبة، فأسرعت تداري وجهها عنه. لم يكنْ هناك من تحكي له حيرتها، فالشياطين ليس بينهم صداقات!

مر بعض الوقت، وهي تحطم في الجبل الصلد أمامها، والسماء الحمراء الصاخبة بالصواعق تدمدم فوق رأسها. ما زال (كاز) رابض في مخيلتها لا تستطيع الفكاك من التفكير فيه.

لم تستطِعْ التحمل أكثر فأسرعت تلتفت.

دارت بنظرها في محيط السماء المغبرة، وحينما رأته هناك آمنًا منهمكًا في العمل اطمأنت.

إنه بخير!!

البحث عن الحقيقة!

اليوم الأول!

القاهرة. العام 1970 بعد الميلاد، بتقويم البشر.

اِنقضت عشرون يومًا نجمية من السُخرة والبناء، وجاء وقت الرحيل إلى الأرض. وكالمعتاد، في وقت اِكتمال سطوع القمر، تزاحم الجميع للدخول من البوابة الواسعة كي يبدأوا رحلتهم إلى الأرض.

وقفت (سيرا) خلف (كاز) في اِنتظار دوريهما. كانت متأكدة أن تلك المرة تختلف عن المرة السابقة. لم يكنْ يصيح ويضحك مثل الباقين. رأته صامتًا مهمومًا بفكرةٍ قد تكون فيها نهايته.

وفي بقعة صحراوية مهجورة، خالية من البشر ومن حراس الملائكة، وتحت عين البدر المكتمل، تدفقت جموع الشياطين فوق صفحة الرمال الملتمعة كطوفان من الحمم السوداء.

اِلتفت (كاز) إلى (سيرا)، وقبل أن يقل أي شيء بادرته هي في صرامة:

- لن أتركك بمفردك!

لم يعقّب، وانطلقا يخفقان بأجنحتهما تحت ضياء القمر، إلى نفس المدينة

التي زاراها آخر مرة، نفس المدينة التي أنبتت بداخله بذرة الشك، ولكن بعد مرور خمسين عامًا أرضية!

سارا في الطرقات المظلمة متخفيين في هيئتهما الشيطانية. كل ما يهمها أن تطمئن عليه، وكل ما يهمه هو إجابة السؤال: ماذا سيحدث لو قرأ أحد الكتب المقدسة لبني (آدم)؟ لذا قرر أن يكون هدفه رجل دين.

أوقفته في زقاق مظلم تملؤه مياه الصرف الراكدة، والقمامة، والرائحة العفنة، ثمَّ هتفت:

- توقف، أريد أن أفهم.

- تفهمين ماذا، نحن نمارس العمل كالمعتاد.

- كالمعتاد؟؟ وهل إغواء رجال الدين تُعتبر من الأعمال المعتادة؟

- نعم، عمل مثل أي عمل آخر.

- كم رجل دين أغويته قبل الآن؟؟ من نحن لنقترب من رجل دين يمتلك سحر الملائكة؟

لم يرد، بقى صامتًا لا يحرك ساكنًا، بينما بعض الكلاب تنبح عليهما عن بعد.

اِسترسلت (سيرا):

- أنت تعرف أن رجال الدين خطرون، ويحتاجون كثيراً من الوقت والعلم قبل العبث معهم، وهذا ما لا يتوفر لعمال الشياطين العاديين أمثالنا، هذه المهمات يقوم بها شياطين الصفوة، وربما يحيلون الأمر برمته للملك (إبليس)، لا تبالغ في تقدير قوتك!

- رجال الدين بشر مثل أي بشر، وسهل إغوائهم لأنهم يعانون كثيراً من الحرمان، وسيكون لنا قدر كبير بين عشائر الشياطين إن نجحنا في مهمتنا.

- (كاز)، أنت لا تريد إغواء رجل دين.

نظر إليها دون أن يرد، فأكملت هامسة كي لا يسمعها الشياطين الذين يمرحون بصخبٍ في الزقاق القذر من حولهما:

- أنت تريد زيارة رجل دين كي تقرأ كتب البشر المقدسة، أليس كذلك؟

لم يعقب، فقط رفع نظره للنجوم، فأكملت:

- كتب البشر مسحورة ومحرمة علينا، ألا تخشى الموت أو العقاب؟

- لا، الشيطان الحقيقي لا يعرف الخوف.

- هذه ليست شجاعة، إنها حماقة.

رمقها غاضبًا وأشاح بنظراته بعيدًا عنها، فدارت حوله، وقالت:

- أنا أخاف عليك!

نظر إليها مجددًا ولم يفهم ما تقول. حتَّى هي نفسها لم تعرف كيف تفسر ما قالت:

- ولو، لا داعي للخوف.

- وإن احترقت؟

- لن أحترق، نحن نسمع قرآنهم وأنجيلهم أثناء صلاتهم ولا نحترق، بل نواصل إلهاءهم!

- نحن نسمعه من أفواههم ولكن لا نقرأه بأنفسنا.

- أعتقد أنه ليس هناك فارق.

- وإن اِكتشف رجل الدين وجودك، وقرأ عليك تعويذة ما، واستدعى أحد الملائكة الحراس؟

- سنهرب بسرعة.

- وإن لم نستطع؟

- أتركيني إذن، سأتحمل الموت أو العقاب وحدي.

- ماذا؟

لم تصدق أنه قالها، ولم تصدق أن تفعلها وتتركه بمفرده، أي عبث هذا الذي يحدث لها؟!

عاود الانطلاق وحيدًا في الظلام بين عشرات البيوت الغافية، فلحقت به ومشت إلى جواره دون أن تتكلم.

على الرغم من أن مظهر المدينة قد اِختلف كثيرًا عن آخر زيارة له؛ فالمنازل صارت طوبية وليست خشبية، والطرقات غطيت بالقار الأسود أو الأحجار الملساء، إلَّا أن (كاز) عرف طريقه جيدًا. اِتجه إلى حيّ صغير يسكنه متوسط الحال والبسطاء.

اِستجمع قواه وبحث بعينيه وعقله في البيوت حتَّى وجد ضالته. بيت يسكنه شاب مسلم، على مشارف الثلاثين من عمره، يُدعى الشيخ (عبد الله). يؤم الناس في الصلاة كل يوم، داخل مسجد صغير يقع عند نهاية الشارع.

إنه الفجر، وقت أول صلاة للمسلمين في اليوم. اِرتفع صوت الآذان عذبًا، وحمله صمت الليل على أكتافه، وحلق به عاليًا، ونثره في كل مكان. اِرتعدت (سيرا) وارتمت في أحضان (كاز) تستند عليه. ضمها وخبأها بين جناحيه، رغم شعوره بالدوار.

إن كان النداء المسحور لصلاة المسلمين يصيبه بالضعف هكذا، فماذا

سيحدث لو فتح كتابهم المقدس وقرأه؟؟ هكذا فكر ولكن ذلك لم يثنِه عن رغبته المحمومة.

اِنفتح باب المنزل مصدرًا صريرًا ناعسًا، وانسل منه (عبد الله) بقامته المتوسطة وجسده النحيل. انطلق بخطوات نشيطة وثّابة، مرتديًا جلبابًا داكنًا وطاقية بيضاء. وعلى ضوء القمر الذي ينير الطريق المبلطة، شاهدا عددًا من الرجال يخرجون من الأبواب المتقابلة على ضفتي الزقاق في طريقهم للمسجد.

نظر (كاز) إلى (سيرا) فهزت رأسها محذرة. لكنه جذبها وعبرا خلال الحوائط، حتّى وصلا إلى منزل الشيخ وتسللا إلى داخله، حيث فوجئا بحشد من الملائكة المسبّحة يملأ المكان!

لم يهتم (كاز) بهم وجذب (سيرا) وعبرا إلى غرفة النوم.

وجدا (سميّة) زوجة (عبد الله) فوق فراشها تتقلب في سبات خفيف. حاولت القيام للصلاة فأسرعت (سيرا) تقفز فوقها. ثبتت ذراعيها على الفراش ومالت على أذنيها، وهمست لها بأنها متعبة ولا يضيرها النوم للحظات إضافية، وأنها حتمًا ستستيقظ كي تدرك الصلاة قبل فوات أوانها. العمل بالبيت مضن، وخدمة زوجها مرهقة، والفراش مريح وبارد وعميق، وظهرها يؤلمها كثيرًا!

قاومت (سمية) أكثر، وحاولت رفع رأسها، لكن (سيرا) أسرعت تغطي وجهها بجناحيها، وواصلت الهمس في عقلها إلى أن خمدت المرأة تمامًا.

- أحسنت!

قالها (كاز) وهو يفتش عن كتاب المسلمين المقدس، فردت عليه (سيرا) منهكةً:

- على الأقل واحد منّا يؤدي عمله.

لم يعقّب، كان منهمكًا في البحث. لم يجد شيئًا فتركا غرفة النوم وانسلا إلى غرفة أخرى بها مكتب خشبي، وخلفه خزانة عريضة تمتلئ بالكتب، ولها نافذة صغيرة مغطاة بستارة مزركشة طويلة. نظرا لبعضيهما للحظات قبل أن يقترب (كاز) من المكتب حيث هناك كتاب كبير مفتوح. كتاب أوراقه بيضاء مزخرفة الحواف، وسطوره مكتوبة بالحبر الأسود، كان ذلك هو كتاب المسلمين المقدس، المصحف!

أمسكته من عباءته لتوقفه ونظرت إليه متوسلة، لكنه أبعدها برفق، واقترب من المصحف واستجمع شجاعته. لو مر عليهما شيطان آخر، أو لمحهما واحد من الجلادين لقضي أمرهما. ولو لم يلحظ وجودهما أحد، وقرأ هو ما في الكتاب المسحور سيحترق مكانه!

في كلا الحالتين هو هالك لا محاله، والحل الأمثل هو أن يفر من المكان بسرعة وينسى شكوكه السخيفة. لكنه عوضًا عن ذلك اِقترب ببطء من الكتاب!!

مشاعر المغامرة المجنونة تشحنه، وفوران شبابه الفتيّ يدفعه إلى اِقتحام التجربة، والشك المتسلل بين طيات يقينه يسيطر عليه كليةً.

بعينيه الشيطانيتين المولودتين في الظلام قرّب وجهه من المصحف، وبدأ ينظر إلى الصفحات البيضاء، إنه يعرف حروف كل لغات البشر.

بدأ القراءة بحذر. قرأ حرفًا، وأتبعه بآخر، ثمّ ثالث. قرأ كلمة كاملة ثمّ كلمة ثانية وثالثة، ولم يحدث له شيء.

اِلتفت إلى (سيرا) التي وقفت مجمدة مكانها والذعر يملأها. طمأنها بعينيه وعاود النظر إلى المصحف المفتوح. اِقترب منه أكثر وتابع القراءة. الكلمات غير مألوفة، ليس ككلمات العرب التي يتكلمونها في كل بلدانهم، هذا كلام لا يفقه منه شيئًا!

عاود المحاولة مجددًا، ركز أكثر، واستدعى كل حواسه المرهفة ليفهم المكتوب، كانت كلمات غريبة، وليست من هذا العالم بالتأكيد.

تجمعت الأحرف والعبارات في ذهنه لتشكل معنى، وترسم صورة، وتزرع يقينًا.

الكلمات تتحدث عن الأخيار من البشر، تصف ما سوف يجدونه من هناء وسعادة أبدية داخل الجنة. ماذا؟ هل هناك مؤمنون من البشر سيدخلون الجنة؟؟ بعد كل ما فعلوه، يكون جزاؤهم الجنة؟؟

واصل القراءة بنهم ثمَّ بدأ يستشعر سخونةً تدب في أطرافه. فقد اِتزانه للحظات. الكلمات تتداخل وتتلون أمام عينيه بلون ذهبي براق. هناك ثقل يسري في أنحاء جسده. وفي لحظة ملأ الصفحة ضياءٌ باهرٌ ساطع، واختفى كل شيء!!

لا يقدر على غلق عينيه، لا يستطيع تحريك جناحيه، لا يقوى على الفكاك، لقد حدث ما يخشاه!

قاوم بكل قوته، حاول التراجع أو التملص، ولكن بلا فائدة، صار كالمشلولين من البشر. هناك من يكبله ويشده إلى داخل فوهة الضوء الحار.

في النهاية أدركه التعب، وقرر مرغمًا أن يستسلم. لا بد أن يدفع ثمن حماقته. ليته أنصت لنصيحة (سيرا).

أغلق عينيه وترك ثقل جسده يهوي أعمق وأعمق داخل الكتاب المفتوح.

الألم يعصف بجسده، ووعيه ينسحب هاربًا، وروحه تلملم أطرافها من أنحاء كيانه لتغادره، ولكن بغتة، شعر بيدٍ تدفعه بقوة بعيدًا عن الكتاب.

هوي مكومًا في ركن الغرفة. اِختفى الضياء الساطع، وشعر بالبرودة تلفه وبالظلام يطبق على رؤيته، ثمَّ سقط في دوامة حلزونية سوداء، وفي داخله تساءل: هل اِحترق وهلك؟!

البحث عن الحقيقة

اليوم الثالث

القاهرة 1970 بعد الميلاد، بتوقيت البشر.

فتح (كاز) عينيه. لم يعرف كم من الوقت مرَّ عليه وهو غائب عن هذا العالم.

طالعته صفحة السماء السوداء وقد اِمتلأت عن آخرها بالكواكب والنجوم والشهب. السديم الكوني رابض في المنتصف كسحابة غبار كثيفة تنجب في كل لحظة مزيدًا من الأجرام. عنقود مهوول من قناديل الضوء المتلألأة، لا أول له ولا نهاية.

سماء عميقة، شاسعة، فاتنة، أول مرة يراها بهذا الجمال الخلاب!

لقد رأى الكثير من البشر يبكون. لم يفهم معنى صراخهم، وانقلاب ملامحهم، وسريان السوائل من عيونهم. طالما أحنقه بكاؤهم، فهو دليل دامغ على ضعفهم وهشاشتهم.

لكنه الآن يتمنى لو يبكي مثلهم!

هناك شيء ما بداخله اِختلف. هناك شيء تهشم ثمَّ أُعيد خلقه وتشكيله. أول مرة يشعر بهذا القدر من السلام والسكينة داخل نفسه.

أفاق من تأملاته على صوت (سيرا) تصيح فرحة:

- هل أفقت؟ هل أنت حي؟؟

اِلتفت إليها، ولاحظ في عينيها نظرات قلق وتوجس فهمس:

- أنا بخير، ماذا حدث؟

- حينما كنت تقرأ، تسمرّت مكانك وتحول جسدك إلى بريق أبيض، وانكفأت فوق الكتاب فدفعتك بعيدًا عنه، لفحني الوهج فاحترقت يداي وسقطت أنت بلا حراك.

- وكيف أتيت إلى هنا؟

- لم أدرِ ماذا أصابك، فسحبتك خارج المنزل إلى تلك الصحراء المقفرة، مرت عليك ليلتان وأنت ترتجف وتقول كلمات مبهمة وكأنك في عالم آخر، خبأتك جيدًا ولحسن الحظ لم يرنا شيطان عابر أو جنيّ متطفل.

- والملائكة؟

- كان البيت يعج بهم، بدو مسالمين أكثر من كتائب الحراس، توسلت لهم أن يدعوني آخذك بعيدًا، بدت عليهم الحيرة مِمَّا يحدث، فتركوني وهم يسبّحون، ويستغفرون، وضياء أجسادهم يزداد توهجًا حتَّى كادت أن تعمي عيناي!

شعر أن جسده قد استعاد بعضًا من عافيته، فجلس مكانه ونظر إليها، ثمَّ لمس وجهها وهمس:

- كيف حال يديك؟

- جيدة.

- لقد أنقذت حياتي مرة أخرى، كيف لي أن أشكرك؟

هتفت متلهفة:

- لا عليك، فقط أخبرني ماذا قرأت في الكتاب المسحور؟

- ما قرأته كان عجيبًا وآخاذًا.

- وماذا فهمت منه؟

- أن البشر منهم مؤمنون سينالون مغفرة الإله.

- محال، هذا كذب، كل البشر مغضوب عليهم وملعونون.

- ما قرأته أن الإله سيدخل الأخيار منهم الجنة، ومن يتبع إغراءات (إبليس) وبنيه سيذهب معهم إلى الجحيم، كل الشياطين، كما وصفنا الكتاب، سيذهبون إلى الجحيم.

صاحت فيه غاضبة:

- ماذا دهاك؟؟ هذا غير حقيقي.

- لا أمل لنا في الحصول على عفو الإله يا (سيرا) حتَّى لو أدخلنا كل البشر إلى الجحيم، ما نفعله يغضب الإله ولا يرضيه، هو لم يأمر بذلك، لقد أقحمونا في معركة لن نربح من ورائها شيئًا، إنها ليست معركتنا أصلًا!!

همست وهي تقترب منه وتتفحص وجهه بنظرات متوجسة:

- أين ذهبت عندما كنت نائمًا مثل البشر؟

- لا أذكر، لكن أشعر بأني صرت مختلفًا، هناك أمر ما ألمّ بروحي.

- كيف؟

لم يتكلم، واصل النظر إليها، ولم يعرف كيف يصف لها ما بداخله، ثمَّ همس:

- أشعر بالامتنان لك، وبأني أريدك معي في كل لحظة، وحتَّى نهاية الزمان وفناء الكون!

حملقت به مشدوهة ثمَّ تمتمت:

- وأنا كذلك.

قال لها:

- ماذا يُسمى هذا في عالمنا؟

- ليس له اِسم، لأنه غير موجود!

- هل هذا ما يشعر به البشر ويسمونه، الحب؟؟

كانت مشوشة ومرتبكة، لكنها همست:

- ربما!

- يا له من شعور رائع، إنه يملأني بالبهجة والأمل.

- ولكن كيف يشعرون بهذا ومع ذلك يملأون الأرض خرابًا؟؟

- نحن نساعدهم على فعل هذا، أنسيتِ؟

ثبتت نظراتها الصامتة في عينيه. هل أصبح يستنكر ما يفعلونه بالبشر؟

قرأ حيرتها فأسرع يقول:

- لا تخافي، أنا ما زلت مؤمنًا بقضيتنا، لكني أبحث فقط عن الحقيقة.

- أرجو ألَّا تقودك تلك الحقيقة إلى الهلاك، وتتركني بالنهاية.

اِبتسم وهمس في عقلها:

- لن يحدث، سنكون أول عاشقين بين بني (إبليس).

ثمَّ اِحتضنها بين جناحيه بشوق!

البحث عن الحقيقة

اليوم الرابع!

صبيحة اليوم التالي اِتفق كل من (كاز) و(سيرا) على الافتراق مؤقتًا كي يباشرا عمليهما بحرية أكثر. هو يريد الاختلاء بنفسه، وهي تود فعل أشياء مهمة وبعيدًا عن عينيه!

قرر (كاز) الذهاب إلى سوق الذهب، بينما قررت (سيرا) زيارة الشيخ (عبد الله) ثانيةً، قررت أن تحرق بيته بكل ما فيه!!

***

كان القرار صعبًا، وخشت (سيرا) أن يغضب منها (كاز) ويهجرها لوعرف ماذا تنوي فعله، لذا أبقت الأمر سرًا عنه.

رأت أن هذا أفضل حل متاح. فبهذا ستضمن ألا يعود (كاز) من ورائها ليقرأ المزيد من الكتب. وحتّى لو أراد البحث عن مصدر آخر للقراءة ستراوده الشكوك بأن من أحرق البيت هو (إبليس) وجلادوه. عندها سيخاف من اِنفضاح أمره، وسيفقد ولعه في القراءة والتقصي عن الحقائق.

إنها خطة قد تنجح أو تفشل، وعليها أن تجرب.

كان الحي صغيراً وغالبية قاطنيه من العمال البسطاء. أزقته ضيقة مبلطة بقوالب الطوب الرمادي الأملس. بيوته متقابلة ومن طابق واحد أو من طابقين. بعض النسوة جلسن أمام عتباتهن يثرثرن بصوت مرتفع، لا يعلو عليه سوى صياح الباعة الجائلين وزعيق الأطفال وهم يلعبون حفاة. تعبق الأجواء روائح الخضار المسلوق، وأعشاش الدجاج، والملابس المغسولة لتوها.

حدقت للحظات حولها في الحي الفقير، ثمَّ تنهدت وملأها حنين مباغت في أن تعيش وسط كل هذا الزخم.

اللعنة! لا بد وأنها اِلتقطت العدوى من المخبول (كاز)!! هكذا حدثت نفسها ثمَّ نفضت عن ذهنها تلك الأفكار العابثة وباشرت تنفيذ خطتها.

في ركن منزوٍ لا يراه أحد، تشكلت على هيئة شابة قروية تبيع الخبز. وذهبت من فورها صوب منزل الشيخ الشاب، ثمَّ دقت الباب الخشبي وانتظرت الرد.

لقد رأت (عبد الله) يغادر المنزل منذ دقائق، ولا يوجد في الداخل سوى زوجته.

فُتح الباب بعد لحظات، وظهرت (سمية) خلف عتبته. اِمرأة ثلاثينية، نحيفة، سمراء، حلوة الملامح، وواسعة العينين. كانت ترتدي جلبابًا نسائيًّا مزركشًا بورود زرقاء وحمراء، وعلى شعرها (شال) أسود خفيف ينسدل متكاسلًا فوق كتفيها. هتفت وهي تبتسم:

- أهلًا وسهلًا، خيراً إن شاء الله.

اِبتسمت (سيرا) وقالت:

- معي خبز يا ست الستات، ألا تريدين خبزًا؟

ضحكت (سمية) وهتفت:

- لا يا عزيزتي، أنا أصنع خبزي بنفسي.

- حقًا؟؟

قالتها (سيرا) وهي تعرف تلك المعلومة من قبل. حاولت التسلل إلى عقل (سمية) كي تجعلها تدعوها للدخول، ولكن عقل المرأة وقلبها كانا مصفحين وصعبا الاختراق، خاصة على شيطانة عادية مثلها. لكن أخيراً قالت (سمية) مبتسمة:

- يبدو عليك التعب، ادخلي، سآتيك ببعض الماء.

دخلت (سيرا) إلى المنزل في حذر، وهي تتحاشى النظر إلى صفوف الملائكة التي تملأ البيت. يبدو أن تلك المرأة واحدة ممن كان يقصدهم (كاز) من البشر؛ بعض ممن سيفلتون من العذاب في الجحيم. ولكن لا بأس فهي تبدو اِمرأة طيبة!

قالت (سيرا) في براءة بعد أن شربت الماء:

- هل ما زال الأطفال نائمين؟

اِبتسمت (سمية) في رقة وقالت في هدوء:

- لم يرزقنا الله أطفالًا بعد.

هزت (سيرا) رأسها في تفهم، ثمَّ صاحت مغيرة مجرى الحديث:

- علميني يا ست الناس كيف تصنعين الخبز؟

ضحكت (سمية) وقالت:

- بنت حلال! أنا على وشك البدء، انظري، أول شيء لا بد أن يكون الفرن ساخنًا قبل أن نضع بداخله العجين.

مشت (سمية) صوب المطبخ، وخلفها (سيرا). في أحد الأركان اِنحنت (سمية) وأمسكت بأعواد الحطب، وسكبت عليها الكيروسين، ووضعتها أسفل فرن طيني متوسط تخرج مدخنته عبر السقف، ثمَّ أشعلتها.

- لن تجدي مثل هذا الفرن القديم عند كثيرين، يستخدمون الآن أفرانًا بألغاز.

قالتها (سمية) باسمة ثمَّ جلست على الأرض خلف طاولة خشبية مستديرة، مفروشة بالدقيق الأبيض، وفوقها الكثير من كرات العجين. ثمَّ هتفت:

- لقد صنعت العجين بعد صلاة الفجر مباشرة، المرة القادمة سأنتظرك لنصنعه سويًّا.

- لا عليك يا ست الكل، لا بد أن أنصرف الآن، عندي عمل كثير.

- بهذه السرعة؟؟ كما تحبين.

- سيدتي، لم لا تنامين قليلًا في غرفتك، تبدين منهكة.

اِبتسمت (سمية) وقالت:

- مستحيل وإلَّا اِشتعل البيت كله، لا بد أن أطفي الفرن بنفسي بعد ساعة واحدة.

حاولت (سيرا) الولوج إلى عقلها وكالعادة فشلت، فابتسمت وقالت:

- شكرًا على الماء، سأنصرف الآن.

- مع السلامة يا حبيبتي، حفظك الله من كل شيطان رجيم!

تعثرت (سيرا)، ووقعت على وجهها، وانقطع نفسها عندما سمعت دعاء (سمية)، لكنها تحاملت واعتذرت، ثمَّ اِنصرفت مسرعة، وسط ضحكات الملائكة!

لم تيأس (سيرا)، وعاودت التسلل مجددًا في هيئتها الشيطانية الخفية، وجلست ترفرف بجناحيها فوق كتفي (سمية) تهمس في أذنيها وداخل عقلها. كانت تسد أنفها وتغطي وجهها. مضت دقائق بدأت بعدها (سمية) في التثاؤب بشدة حتَّى دمعت عيناها فتمتمت:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!

اِنقلبت (سيرا) على ظهرها، وتكورت حول نفسها متألمة وهي تشعر بغليان داخل جوفها، ثمَّ اِندفعت خارج المنزل هاربة، بعدما اِصطدمت عدة مرات بالجدران.

عاودت (سيرا) المحاولة من جديد، ودخلت المنزل للمرة الثالثة. لا بأس من الراحة عشر دقائق، أستعيد فيها نشاطي لأكمل العمل، وأتزين بعدها ل (عبد الله) حين يعود، أجل، عشر دقائق فقط!

أخيراً اِستجابت (سميّة) وبدأت في التهاوي فنهضت وجرت قدميها صوب غرفة النوم، ثمَّ ألقت جسدها فوق الفراش، وغابت من فورها في سبات عميق، و(سيرا) رابضة فوقها.

نجحت الخطة. نامت (سميّة) ونسيت أن تطفئ الفرن المشتعل!

اِبتسمت (سيرا) حين اِشتمت رائحة الحريق وقد بدأ يمضغ الأخشاب القديمة من حوله، ثمَّ اِنطلقت مسرعة من البيت، وهي تنظر باستهزاء للملائكة المتزاحمين حول فراش (سمية)!

***

دخل (كاز) سوق المجوهرات الكبير في وسط المدينة.

أخرج من عقله كل ما قرأه في بيت الشيخ، فهو لا يملك دليلًا دامغًا على صحته. قد يكون كل ما حدث له نتيجة لسحر ما لا يدري كنهه. مهمته الأساسية هي الزج بالبشر في الجحيم، وإذا نجح بعضهم في الفكاك، فليحاول قدر اِستطاعته أن يكون هذا العدد قليلًا ونادرًا!

اليوم ما زال في أوله والسماء زرقاء صافية والشمس ساطعة بلا حرارة.

نسمات الهواء لطيفة تنعش الوجوه. الكل متحمسون ومتأنقون، رجال ونساء، وعمليات البيع والشراء على أشدها في أرجاء السوق الواسع. بدا المكان كلوحة ضخمة ملونة تضج بالحركة والأصوات والحياة.

اِختلفت الأمور كثيراً على الأرض خلال الخمسين عامًا الماضية. هناك سيارات معدنية تسير بالمحركات. اِرتفعت البنايات، وزاد الازدحام، وتغيرت أنماط الملابس وتبدلت أخلاق البشر.

هذا سيسهل مهامه إلى حد كبير!

عند زاوية الشارع الرئيسي هناك محل مجوهرات صغير. محل مملوك لأرمنيّ عجوز يُدعى الخواجة (إسحق).

بداخل المحل، وقف (عدلي)، مساعد الخواجة، خلف (فاترينة) العرض. شاب وسيم، في العشرينات من عمره، قمحي اللون، أخضر العينين، وعلى شفتيه اِنطبعت اِبتسامة عريضة، البيع يبدو جيدًا، ومن الواضح أن عمولته ستكون مجزية، ولن يضطر، كعادته، إلى إخفاء الأوراق النقدية في طيات ثيابه دون أن ينتبه الخواجة البخيل.

دخلت المحل سيدة ممشوقة، يبدو عليها الرقي من ملابسها الغالية ورائحة عطرها الثقيل. أجالت نظراتها الفاترة في المعروضات، ثمَّ طلبت في برود خاتمًا ثمينًا من الألماس. هرع (إسحق) يفتح خزانته الحديدية السميكة، وأخرج منها رفًا صغيراً مكسوًا بالقطيفة الحمراء، اِرتصَّ فوقه عشرون خاتمًا فخمًا.

تململ باقي الزبائن في المحل، ثمَّ بدأوا في الانصراف تباعًا، بعد أن طال وقت اِنتظارهم ل(إسحق) المنهمك في خدمة السيدة الثرية. وبعد دقائق صار المحل خاليًا.

بعد لحظات دخل رجلان ضخمان، غليظا الملامح، ويرتديان حلتين داكنتين. أغلق أحدهما باب المحل من خلفه، بينما أخرج الآخر مسدسًا ضخمًا وهدد به (إسحق) ليعطيه ما في الخزانة. حدث كل هذا في ثوان معدودات.

اِرتعد (إسحق) المسكين، وصرخ بأعلى صوته طالبًا الغوث، فأطلق الرجل الممسك بالمسدس الرصاص عليه، وأرداه قتيلًا في الحال. وبدون أن تنتبه لوجود (عدلي)، صرخت السيدة الثرية مخاطبة القاتل في حنق بالغ:

- أيُّها الغبي، كدت أن تصيبني، قلت لك لا قتل اليوم، ألَّا تفهم؟!

ثمَّ اِنتبهت مذعورة إلى حيث يقف (عدلي) شاحبًا مرتجفًا. بقيت للحظات تحدق فيه، قبل أن تتماسك وتلتفت للقاتل وتقول له ببساطة وهي تضع الخواتم في حقيبة يدها:

- للأسف، ستضطر اليوم إلى قتل اِثنين!

صرخ (عدلي) في اِستجداء:

- الرحمة يا هانم، لا داعي.

- وما السبب الذي يجعلني لا أقتلك؟ لقد رأيت وجوهنا، وأنت شاهد على كل ما حدث.

صرخ (عدلي) ثانية وهو يختبئ في الأسفل:

- أنا أعرف أين يخبئ الخواجة المزيد من الألماس، لقد كان يستأمنّي عليه.

- أين؟

- هل أدلك ولن تقتليني؟

- أوووه، حسنًا، أنت مفاوض ماهر، هيا اِنهض ولا تخف، لن أقتلك.

نهض (عدلي)، والعرق يغطي وجهه، وبيدين مرتعشتين فتح درجًا سحريًا مخفيًا خلف صورة قديمة، ثمَّ أخرج منه كيسًا من الحرير الأسود به عشر ألماسات. أخذت السيدة الكيس ونظرت بداخله، ثمَّ اِبتسمت ل (عدلي) وقالت:

- أحسنت صنعًا، أنا لن أقتلك كما وعدتك، من سيقتلك هو شخصٌ آخر.

ثمَّ اِلتفتت لحامل المسدس، وهتفت بصرامة:

- اِقض عليه الآن، خلصني!

صرخ (عدلي) مجددًا، لكن صرخته تحشرجت في حلقه بعدما أصابته رصاصات القاتل.

أسرع الرجل الآخر وفتح باب المحل بهدوء، ونظر خارجه للحظات، ثمَّ أشار للبقية ما معناه أن الطريق أمان، فانسل ثلاثتهم هاربين قبل أن تجذب الضوضاء أحدًا من الفضوليين!

جلس (كاز) فوق الخزانة المفتوحة، وهو يحدق في جثتي (إسحق) و(عدلي).

ملأ بكيانه الشيطاني فراغ المحل. دار كزوبعة بطيئة وهو يتلمس الحوائط، والسقف، والأركان. بدا غير راض. صحيح أنه تسبب في جريمتي قتل كان من المفترض ألا تحدثا، ولكن ما الإبداع في ذلك؟ هل فقد حماسته وشغفه؟؟، هناك شيء مفقود بداخله ولا يدري كنهه!

قفز إلى خارج المحل، وتشكل في صورة شحاذ، وغاب في الزحام، وبعدها سمع صراخ إحدى السيدات، بعدما دخلت المحل واكتشفت المجزرة.

البحث عن الحقيقة

اليوم السابع!

القاهرة 1970 بعد الميلاد، بتوقيت البشر.

فوق قمة جبل صخري، يطل على المدينة، جلس (كاز) شاردًا، يفكر في كل شيء مر به منذ أن ترك الحظيرة قبل أعوام عديدة.

وقتها كان متأكدًا من كل شيء. يعرف من معه ومن ضده. يعلم أن الملائكة يمنعون الشياطين من اِختراق السماوات كي لا يصل صوتهم للإله. يؤمن أنه وبني جنسه كلهم مسخّرون كي يُضلوا البشر، حتَّى يفوزوا بعفو الإله.

الآن بدا غير مرتاح لكل هذا. يشعر أن الحقائق قد لُويت أعناقها كي تتوافق مع ما يفعلون.

كيف يسعى الإله لإفساد مخلوقاته وإغوائهم ليعذبهم بعدها؟ أي حكمة في هذا؟؟ وما الذي سيكسبه؟!

هل ما يفعلونه بالبشر خير أم شر؟، وماذا يعني الخير؟ وما هي الشرور أصلًا؟؟

منذ قديم الأزل وبنو (إبليس) يحاربون بني (آدم)، وبنو (آدم) لا يكفون

عن لعن بني (إبليس). الملائكة في ظهر البشر تساندهم وتحميهم وكأنهم خلقوا فقط لتلك الغاية. السماء صارت كسجن كبير خانق والشهب الحارقة لا ترحم.

من مع من، ومن ضد من؟؟

من هم الأخيار الموعودون بالنعيم ومن هم التعساء المتوعدون بالسعير؟؟ ألم تخطر مثل تلك التساؤلات على بال أحد من قبل؟ هل هناك آخرون مثله ولكنهم يكتمون أفكارهم؟؟

حائر يرفع بصره إلى السماء من آن للآخر، بينما تجلس (سيرا) إلى جواره وهي متأكدة مِمَّا يجول في خاطره، واثقة من الصراع الدائر داخل عقله الشاب الصغير.

أخيراً قطع الصمت بينهما وقال بعزم:

- لا أستطيع التحمّل أكثر من هذا، لا بد أن أعود إلى منزل الشيخ كي أتأكد من أمر ما!

- ماذا؟؟ لقد أغلقنا الكلام في هذا الأمر.

- لم يحدث.

قبل أن تعلّق اِنطلق، وبسط جناحيه، واتجه صوب أطراف المدينة النائمة. لم تستطِعْ أن توقفه، فقفزت من فوق الجبل، وفتحت جناحيها، وتبعته!

***

بداية الليل، موعد صلاة العشاء. الظلام يخيم على الحي ولا يبدده سوى قليل من أعمدة الإنارة الكهربائية، المثبتة على جانبي الطريق. تمتم (عبد الله) ببعض الأدعية، وهو يحكم إغلاق باب البيت من خلفه، وأسرع بخطواته الواثقة تجاه المسجد.

الطريق تعج بالملائكة المسالمين بهيئتهم النورانية البراقة، وهم يسبحون الإله

في خشوع، وتعج كذلك بالشياطين بألوانهم القرمزية السوداء، وهم يتصايحون فوق أكتاف المصلين، وبعضهم يتسلل في حذر إلى داخل المسجد!

لم يهتم (كاز) بكلا الفريقين، فقط أشار للبيت من بعيد وتمتم:

- ما الذي حدث؟ الواجهة يكسوها السواد، البيت كاد أن يحترق!

لم تجاوبه (سيرا). طالعت المشهد أمامها في وجوم، وداخل عقلها سؤال ملح؛ كيف نجت (سميّة) ومنزلها الخشبي من النيران؟

تسلل (كاز) إلى البيت في حذر، ومن ورائه تبعته (سيرا) وسط عشرات الملائكة المكدسين، كانوا ينظرون إليها مبتسمين، وفي عيونهم يلمع بريق الانتصار!

همس (كاز):

- يبدو أنهم ما زالوا يذكروننا، ولكن لم يبتسمون هكذا؟

- لا أدري.

يبدو أن هؤلاء المبتسمون قد أفسدوا مخططها بطريقة ما. ربما أيقظوا (سميّة)، أو ربما أطفأوا النار بأنفسهم. هكذا فكرت (سيرا)، وهي تتبع رفيقها حتّى وصلا إلى غرفة الكتب. اِتجه (كاز) بخطوات متأنية ناحية المصحف المفتوح فهتفت (سيرا) محذرة:

- اِحترس، قد لا أتمكن من إنقاذك هذه المرة.

- لا عليك، فقط إن رأيتني أشتعل حاولي أن تدفعيني بعيدًا.

- اللعنة يا (كاز)، فكر ثانية، لن نكون محظوظين في كل مرة.

- اِستعدي!

اقترب أكثر من المصحف، وغاص بنظره في الصفحات، وبدأ يقرأ من جديد تحت أنظار الملائكة المذهولة، ثمَّ ارتد للخلف مسرعًا.

ما زال يتحكم بنفسه ولم يصبه الشلل بعد. لقد كان يختبر الأمر فقط!

نظر صوب (سيرا) المتحفزة وطمأنها بنظراته الواثقة، ثمَّ اِقترب ثانية من المصحف وعاود القراءة. بدا الأمر أيسر من المرة السابقة، وانزلق سريعًا داخل السطور.

شعر بحرارة طفيفة تسري في تكوينه وملأته نشوة ما. هل هي نشوة قراءة تلك الكلمات الغريبة؟ أم هي نشوة المعرفة؟

كان مذهولًا، مأخوذًا إلى عوالم بعيدة وممالك جميلة خلابة، يرى المشاهد، ويسمع الأصوات، ويشتم الروائح! لا سياط، ولا جلادين، ولا شقاء، فقط ترانيم ساحرة تملأ روحه وأسماعه.

شعر بكيانه يرتجف تحت هزيم الرعد الصاخب وهو يرج السماء، بينما فيض الأمطار الغزيرة يلتقي بطوفان الأرض الثائر، ليحملا سفينة ضخمة، تظهر وتختفي مع أضواء البرق الساطع، وهي تتأرجح وتبحر بعيدًا عن الهالكين، وفوقها بشر وحيوانات ونباتات، ومعهم عجوز يبكي علي ضياع اِبنه الكافر بعدما حال بينهما الموج. وجد نفسه في قلب صحراء شاسعة حارة، وسمع صياح الصبي الجميل (يوسف)، يتردد صداه وحيدًا ملهوفًا، من داخل بئر عميقة، علّ أحدهم يسمعه ويغيثه. دخل كهفًا رطبًا مع بعض الفتية النائمين، وأمامهم كلبهم باسط ذراعيه. اِشتم رائحة النحاس المصهور، ينسال من قدور ضخمة، فوق قضبان الحديد، ليملأ فراغًا ضيقًا بين جبلين عظيمين، ويشكل سدًا ضخمًا أمام كائنات دميمة متوحشة. تهادى جسده برفق فوق صفحة النيل الهادئ، مع مهد (موسى) الرضيع، أمام قصر الملك (فرعون) الطاغية وحراسه. ملأته السكينة وهو يشاهد تماثيل الطيور الطينية تدب فيها الحياة، حينما ينفخ عليها (عيسى)، ثمَّ ترتفع مرفرفة في السماء، أمام نظراته الطيبة المبتهلة. شعر بقيظ الصحراء القاسي

و(محمدٌ) يمتطي جملًا، ووراءه صديقه، وأمامه دليلهما، في هجرة غيرت وجه الأرض، وحملت السلام إلى الجميع. ورأى (إبليس) يثور، ويرفض أن يسجد ل(آدم) مع بقية حشود الملائكة داخل الجنة وفي حضرة الإله.

اِرتد للخلف كالملسوع، وما زال نور الرب يملأ عينيه، حتَّى أنه ما عاد يرى شيئًا آخر. لقد أبصر ضياء الإله بين دفتي هذا الكتاب. لم يكنْ هذا سحرًا بالتأكيد!

اِنتبه على هزات من يد (سيرا) فاختفى كل شيء من حوله، ووجد نفسه ما زال في الغرفة المظلمة الهادئة، أمام المصحف المفتوح. اِلتفت إليها متسائلًا فقالت:

- ماذا يحدث لك؟ لماذا لم تحترق؟

أجابها هامسًا بذهول وهو يلهث:

- لا أدري!

حاولت أن تقرأ معه فأبعدها بسرعة وهتف:

- لا تفعلي، أنا لا أضمن ما قد يحدث لك.
- يجب أن أعرف ماذا قرأت
- سأخبرك لاحقًا، فقط دعيني أنتهي أولًا.

عندها، سمعًا ضوضاء خارج الغرفة. لقد عاد الشيخ من الصلاة!

اِنسحبا إلى ركن الغرفة مترقبين. دخل (عبد الله) حاملًا بعض الكتب. أضاء المصباح الكهربي الصغير فوق مكتبه، ثمَّ جلس على المقعد، وحوله جوقة من الملائكة المسبحين.

بقيا يرقبانه في حذر قبل أن يقول الشيخ (عبد الله) بصوت رخيم:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

صدحت جموع الملائكة مرددين خلفه، وضياؤهم يتزايد سناه، و(كاز) ينظر إليهم في ذهول. لم يكنْ خائفًا أو مرتعدًا، بل كان مبهوتًا ومنبهرًا وسعيدًا!

بدأ (عبد الله) في قراءة القرآن بصوت عذب. قصة تحكي عن جماعة من الجن اِستمعوا لكتاب المسلمين المقدس. فرجعوا إلى قبيلتهم وأخبروهم بما سمعوا وبما كان يقول سفيههم من أكاذيب على الإله. (سفيههم؟؟) (أكاذيب؟؟!). راق الصوت كثيراً ل (كاز)، وأعجبته القصة، ولم ينتبه لمرور الوقت، ثمَّ حانت منه التفاتة نحو (سيرا)، فوجدها ملقاة تتشنج عند قدميه، وقد إحمر جسدها وتورم وكاد أن ينفجر!!

اِستفاق بسرعة من سكينته وحمل (سيرا) ملتاعًا بين جناحيه. لم يدر ماذا عساه أن يفعل. كانت ساخنة حتَّى كاد أن يحترق من فرط حرارتها. تحامل على نفسه وأحكم جناحيه حولها، ثمَّ اِخترق بها سقف البيت، وحلّق بعيدًا في قلب السماء الباردة. ذهب إلى بقعتهم الصحراوية المقفرة، ووضعها فوق الرمال، وهتف بها ملتاعًا:

- (سيرا)، هل أنتِ بخير؟

لم ترد. كانت ما تزال ملتهبة وتتشنج، وجسدها يختفي ويعاود الظهور في إيقاع متسارع. إنها تموت، سيفقدها لا محالة. جاهدت لتفتح عينيها الحمراوتين، وأرسلت له نظرة مرتعبة، مملوءة بالدموع وبالعتاب، (سيرا) تحتضر!

لم يستطِعْ أن يستوعب تلك الحقيقة المفزعة.

رفع عينيه عاجزًا صوب النجوم البعيدة، واخترق بنظره كل المجرات والسدم، حتَّى تعلقت أبصاره ببوابة السماء، المدججة بكتائب الملائكة الحراس. هذا أقصى ما يستطيع أن يصل إليه ببصره.

هل يهرع إلى أحد شياطين الصفوة ويطلب عونه؟ من المؤكد أنهم يملكون الحلول اللازمة لإنقاذ (سيرا). ولكن هل سيغيثونها إذا ما عرفوا سبب اِحتراقها؟ أم سيتركونها تهلك ثمَّ يفتكون به، ليكونا عبرة لكل المخالفين من بني (إبليس)؟؟

علّق نظراته على بوابة السماء مستغيثًا. لم يكنْ يدري إلى من يلجأ. صرخ بعينيه الشيطانيتين، عينيه المدربتين على الحسد والشر، ولا تعرفان الرجاء والبكاء!

لأول مرة يدرك مرارة أن يكون وحيدًا في هذا العالم، حيث لا سند ولا نصير، شعر أنه ضعيف، عاجز، هش.

مال على (سيرا) مجددًا وأخذها بين جناحيه وناح كما يفعل البشر.

البشر؟؟؟ هل يستغيث بالإله كما يفعل بنو (آدم)؟؟ ولكن، هل سيغيثه كما يغيثهم؟!

كلنا مطرودون من جنته، ولكن هل محرومون من رحمته؟؟

بغتة، شعر أن اِرتجاج (سيرا) قد هدأ وحرارتها قد انخفضت. نظر داخل عينيها المنهكتين، ما زالت موجودة معه، (سيرا) لم تمت!

شعر بالسعادة تغمره فرفع نظراته الممتنة صوب السماء. ثمَّ أخذ (سيرا) أكثر بين جناحيه.

***

اِستندت بظهرها على صدره وهما جالسان في بقعتهما المنعزلة. مرت ساعات لم يتكلما خلالها أو يتبادلا الأفكار.

هي ما زالت مرهقة، وخائفة مِمَّا حدث لها، بينما هو شارد بنظره بين آلاف

الشموس المتلألأة داخل رقعة السماء الشاسعة. كان يرخي نظراته من حين لآخر، وينظر إلى (سيرا) ليتأكد أنها ما زالت معه.

لم تحرقه الكلمات المقدسة هذه الليلة، وقرأ وفهم الكثير.

شعر أن عقله بات أصفى عن ذي قبل، وبأنه ينسلخ عن نفسه القديمة، ويتخلص من نشأته وأصوله وعاداته.

هل هذا تأثير صدمة المعرفة؟، أم أنه سحر الملائكة قد تغلغل في كيانه وسمم يقينه بالأكاذيب؟؟

رأسه حُبلى بعشرات الأسئلة، لكنها لم تلد أجابة واحدة حتَّى الآن!

همهمت (سيرا) في وهن:

- ألن تخبرني ماذا قرأت؟

- كلام غريب.

- ولكنك لم تحترق.

- هذا أيضًا غريب!

- هل كانت كلمات الإله حقًّا؟

- إنها كذلك، كلمات تتحدث عن الإله، حيث كل الموجودات جُعلت لتعبده وتبجله وتقدسه، كلمات تتحدث عن الملائكة والسماوات والبشر.

- ونحن؟ ألم تتحدث الكلمات عنا؟

نظر إليها، وغاص في عينيها الخائفتين، وقال:

- تحدثت عن (إبليس) وكيف أنه تكبّر على الإله، ورفض أن يسجد ل(آدم) كما أمره.

- ماذا؟؟ هل أمره الإله أن يسجد لغيره؟؟

- كان أمرًا بالخضوع لا أمرًا بالعبادة، ولكن (إبليس) رفض!

اِعتدلت في جلستها وانتبهت أكثر وهتفت:

- هل من شدة إيمانه وتوحيده أبي أن يسجد لغير الإله؟

- لا، لقد ملأه الغرور واحتقر خلقة (آدم) واستنكر أن يسجد له، فغضب عليه الإله ونفاه خارج الجنة، لم يكن ل(آدم) أي ذنب فيما حدث ولم تتآمر الملائكة ضده، كان هذا قراره واختياره.

جرّت جسدها بوهن بعيدًا عن أحضانه وقالت:

- أنت تقول كلامًا فيه هلاكك، وما قرأته غير صحيح.

بدا وكأنه لم يسمع ما تقول وهمس مخاطبًا النجوم:

- وعندما ملأه الحقد عاود الانتقام، ووسوس ل(آدم) و(حواء) ليأكلا من الشجرة المحرمة، وانصاع الزوجان لغوايته فغضب الله عليهما.

- أرأيت؟ ما أخبرونا به صحيح، (آدم) طمّاع مثل زوجته، لقد طردهما الإله من الجنة.

- لكنه عفا عنهما بعدما اِعترفا بالخطيئة وتوسلا طلبًا للمغفرة.

- لا عفو للبشر ومصيرهم إلى الجحيم، نحن الأخيار، نحن من ننفذ قانون الله وحكمه فيهم!

صمت للحظات ثمَّ قال متحسرًا:

- وأقسم (إبليس) بعزة الإله أن يفسد كل نسل (آدم) إن مُنح الخلود لآخر الزمان، لقد تحدى الرب أمام عرشه ووسط ملائكته وداخل جنته.

- لا أصدق أن تعتقد في الملك (إبليس) كل هذا العبث.

نظر إليها وهتف بصدق:

- لقد أرقنا الكثير من دماء بني (آدم) وأذقناهم الويلات والمحن، نحن لا ندخلهم الجحيم تنفيذًا لأوامر الإله، نحن ننفذ أوامر (إبليس) كي ينتقم وينتصر في تحديه الأحمق ضد الإله!

نهضت متثاقلة، وبدأت تحرك جناحيها بوهن، ثمَّ قالت حانقة:

- لا تدّعي الفضيلة، كلنا نأتي بالفظائع لبني (آدم) ونستمتع بهذا، وأنت كذلك مثلنا.

- لم أكن أفكر في ما نفعله.

حدقت به لوهلة ثمَّ سألته:

- هل كفرت بقضيتنا؟

- أنا لم أتخذ قراري النهائي بعد.

اقتربت منه أكثر ثمَّ قالت بحزن:

- أما أنا فقد فعلت، إن لم تتراجع، فلن أكون لك بعد الآن!

صرخ منزعجًا:

- ماذا؟ وما دخل ما نتحدث فيه بنا؟

- كما سمعت، أنا لن أرافق مخبولًا، مكذبًا بقضيتنا العادلة، وكافرًا ب (إبليس) الطيب.

- لكني أبحث عن الحقيقة؟

- وهل تظن أنك وحدك من تبحث عنها؟ كثيرون فعلوا، وفضّلوا أن تبقى الأمور على حالها.

- أنت لا تعرفين شيئًا.

صرخت فيه منفعلة:

- بلى، أنا أعرف أكثر منك. أنت لم تسمع ما حدث في قطيعي، فقد كنت أنا الناجية الوحيدة!

همس متسائلًا:

- ماذا تعنين؟

- لم أخبرك في البداية حتّى لا تهلع وتتركني، ولكن واحدًا من قطيعي فعل ما تفعله أنت الآن، بدأ يفكر، ويبحث، وظن أنه وصل إلى الحقيقة، تخيل أن في يديه نجاة الجميع فبدأ ينشر أفكاره، صدقه قليلون وكذبه كثيرون، وعلم بذلك شياطين الصفوة فأبادوا الكل، المصدقين، والمكذبين، والمتشككين، أحرقوا الجميع، بما فيهم الجلادين الواقفين على حراستنا.

- ماذا؟؟ أبادوا قطيعًا كاملًا؟

- إنهم لا يعرفون الرحمة مع المذنبين، في لحظات محوا آلافًا من الوجود ليدفنوا الفتنة إلى الأبد.

- وماذا فعلتِ؟

- توقعت ما سيحدث قبلها فنجوت بأعجوبة، وظللت هاربة حتّى اِختبأت في قطيعكم.

هتف بها مستجديًا:

- حسنًا، لن ننشر الحقيقة بين الجميع، سنحتفظ بها لأنفسنا.

- وما فائدة الحقيقة أن أبقيناها سرًا؟

- المعرفة في حد ذاتها مكسب، على الأقل سننجو بأنفسنا.

- الحقيقة أن (إبليس) طيب و(آدم) خبيث، إن أردت أن تؤمن بهذا فأنت تعرف مكاني.

- سأفعل ولكن عندما أقتنع، أريد فقط مزيدًا من الوقت.

صرخت فيه غاضبة:

- نحن لم نُخلق لنقتنع، نحن خلقنا لنُطيع، وأنا شيطانة مطيعة!

- أنا أحتاج إليك، أنا أحبك يا (سيرا)، لا تتركيني.

- لا تتبعني!

دفعت (سيرا) جسدها إلى أعلى، ودارت حول (كاز) مرتين كأنها تحذره من اللحاق بها، قبل أن تختفي في ظلمة السماء.

البحث عن الحقيقة

اليوم الثامن!

القاهرة 1970 بعد الميلاد، بتوقيت البشر.

كان حانقًا ساخطًا مشوشًا حزينًا.

هل هذا ما كسبه من بحثه في دهاليز الحقيقة؟؟ أن يخسر خليلته وحبيبته، ويغدو وحيدًا منبوذًا بائسًا؟ كيف يواصل رحلته بدون (سيرا)؟

رغم أنها عاملته بقسوة شديدة، إلا أنها على حق!

من هو حتَّى يغير ناموس الكون؟ من هو كي يُكذّب الملك (إبليس) العظيم؟

فلتذهب الحقيقة مع البشر سويًّا إلى الجحيم.

البشر تعساء فاسدون ولا يستحقون سوى العذاب، لو بهم ذرة من خير لما اِنصاعوا للشياطين.

هكذا فكر (كاز)، وهو رابض بكيانه الدخاني الأسود القاتم، فوق كتفيّ سائق قاطرة ضخمة، تترجرج بثقل حمولتها. الليلة معتمة، والطريق ضيقة، وتحيط بها المزروعات من كل جانب. الضباب منتشر فوق صفحة الأسفلت البارد. الرؤية بالكاد واضحة أمام السيارة القديمة، وكشافاتها المستديرة تطلق ضوءًا باهتًا، يزيد الأمور سوءًا على سوء.

لم عساه أن يقتنع بأول كتاب قرأه في مكتبة الشيخ المسلم؟ الكلام مسحور ولا شك.

(سيرا) على حق، لكم يشتاق إليها!!

لن يتخلى عن قضيته العادلة، ويترك بني (آدم) يلوذون بفعلتهم دون عقاب. لماذا يتعاطف معهم، ويأخذ صفهم، ويصدق كذبهم؟! ماذا سيجني غير العقاب أو الهلاك إن ساندهم وعادى قومه؟

مال على أذن السائق و أخذ يهمس. اِبتسم الرجل، والتمعت عيناه، ومال على درج السيارة ثمَّ أخرج منه زجاجة خمر رخيص. نظر إلى الطريق المعتم أمامه متشككًا. فأسرع (كاز) والتقم أذنه الأخرى. عندها اِتسعت اِبتسامة الرجل، كاشفةً عن أسنان أتلفها التبغ، ثمَّ فتح سدادة الزجاجة بأضراسه، وبصقها من الشباك المفتوح، ومضى يجرع في نهم!

اِطمأن (كاز) أن السائق بدأ يثمل سريعًا، فتركه وطار خارج القاطرة اللاهثة، ومضى يتفحص الطريق الضيقة أمامه حتَّى وجد ضالته. سيارة خاصة صغيرة، يقودها رجل وبجانبه زوجته، وخلفهما طفلان يغطان في نوم عميق. كانت السيارة الصغيرة تسبق القاطرة بمسافة وجيزة ومستورة عنها بالضباب.

قفز(كاز) فوق كتفيّ الزوج، الذي بدا مهمومًا، وتسلل إلى داخل رأسه ومضى يقرأ عقله، ووجد ما يبحث عنه. على الرغم من أن الخطة مرتجلة إلَّا أنها تسير على ما يرام.

عقول بني (آدم) كنوز لا تنضب من الحقد والخبث والحماقة!

اِلتفت الرجل بغتة تجاه زوجته وهتف مغتاظًا:

- فيم تراك شاردة يا (نبيلة) هانم؟

تمتمت المرأة بفتور:

- لا شيء، ولم تتكلم معي بتلك اللهجة؟

- أكان من الضروري أن تحيي الأستاذ (مراد) اِبن عمتك بتلك الطريقة الحميمة؟

عقدت (نبيلة) حاجبيها في دهشة وقالت منتبهة:

- أية طريقة؟

- أهلا يا (مراد)، أين كنت يا (مراد)؟ ما كل تلك الغيبة يا (مراد)؟ لقد اِشتقنا إليك كثيراً يا قطران، لم لا تزورنا أنت والمدام يا سخام؟، أي هراء ذلك الذي كنت تقولينه أمامي؟

اِعتلى (كاز) كتفيها سريعًا، ودس فمه في أذنها وواصل الهمس، فقالت وهي ترتجف من الغضب:

- (محمود)، هل جننت؟؟ كيف تسمح لنفسك بإهانتي وطعني في أخلاقي؟

- أليس (مراد) هذا الذي تقدم لخطبتك قبل أن نتزوج؟

- ورفضته، وفضلتك أنت عليه.

- لو أن هذا صحيح، كنت راعيت مشاعري ولو بالكذب، أنت لم تشاهدي نفسك وأنت تنظرين إليه وتلتهمينه بعينيك.

- أنت فقدت عقلك بالتأكيد!! لم فتحت هذا الموضوع الآن؟ عمتي (فوزية) دعتنا لزفاف ابنتها في عزبتها، وقابلناه سويًا هناك، ورحبت به أمامك بشكل طبيعي، ما الذي غيرك هكذا فجأة؟!

اِلتفت إليها ثانية وصاح بصوت جعل الطفلين يتململان في نومتهما:

- وفي منتصف الحفل لم تستطِعْي رؤية حبيب القلب جائع فأسرعت بتجهيز طبق حلوى وقدمتيه له.

- مجاملة عادية، وقدمت أطباقًا لعشرين غيره من الضيوف.

نظر للطريق المضبب وتمتم وهو يطحن أضراسه:

- كنتما سويًّا في (الفارندة).

صاحت به:

- كان هناك كثيرون حولنا، (محمود)، هل تشك في؟

لم يجاوبها، ظل صامتًا يغلي كقدر مكتوم. يداه ترتعشان فوق المقوّد، ونظراته متوترة لا تثبت على شيء. بالكاد يسيطر على أعصابه وعلى السيارة الصغيرة. لقد سطعت الحقيقة واضحة جليّة في ذهنه: (نبيلة) تخونه!!

قفز (كاز) خارج السيارة وعاد لسائق القاطرة الثمل وهمس في أذنيه أن يسرع. لا بد أن يصل للبلدة التالية قبل الفجر. لا بد أن ينال قسطًا وافيًا من الراحة في واحدة من اِستراحاتها الهادئة. الفراش النظيف البارد يناديه. ومن يدري، ربما وجد ريفية حسناء تؤنس ليلته!!

تحمس السائق الثمل وضغط بدالة الوقود لآخرها، فزمجرت القاطرة الضخمة أكثر، وانطلقت تنهب الأرض كغول مسعور وهي تملأ الهواء بعادمها الأسود.

رجع (كاز) للسيارة الصغيرة، وجلس فوق كتفيّ الزوجة، وغطى وجهها بجسده. اِستجمع كل قواه وحنقه وحيرته، وانسل إلى داخل عقلها وألهب غضبها أكثر.

كيف يظن بي مثل هذا الظن القبيح؟ أنا اِبنة الأكابر التي جاهدت أهلي كلهم لأتزوجه. أنا أم طفليه. أنا من تحملت غيابه الكثير وصنت شرفه وحبه.

كيف يفكر في بتلك الطريقة الرخيصة وكأنني ساقطة. لا بد أن ينال عقابه ويعرف قيمتي. سأتركه، أجل لا بد أن أتركه.

صرخت (نبيلة) بغتة:

- ما قلته لا يمكن السكوت عليه، يستحيل أن أعيش معك بعد الآن، أنا أريد الطلاق!!

لم يصدق (محمود) أذنيه، لقد أفصحت الخائنة عن الحقيقة، تريد أن تهجره وتذهب إلى (مراد). لقد دبرا ورتبا كل شيء مسبقًا!

أعماه الغضب وارتج جسده كله كالمصعوق، فضغط المكابح بكل قوته، والدماء تفور في رأسه.

لم ينظر للمرآة الخلفية، ولم ير العينين الدامستين للقاطرة الضخمة وهي تقفز فوق سيارتهم الصغيرة كوحش متربص.

كان الاصطدام حتميًا ومدويًّا ومريعًا، ولم ينج أحد.

تعلّق (كاز) في الهواء، وهو ينظر للسيارتين المتفحمتين وألسنة النيران المتأججة تأكلهما بنهم وتلذذ، ثمَّ خفق بجناحيه ليرتفع أكثر في قلب الظلمة وهو يفكر:

(سيرا) على حق!

***

صرخ فيها غاضبًا:

- اعطني ذلك العُقد حالًا.

نظرت إليه أمه بوجهها العجوز المتغضن، وكافحت لتخرج صوتها من بين الدموع التي ملأت حلقها:

- يا (فتحي) يا بني، إنه كل ما أملك، إنه ثمن جنازتي وقبري.

- لا تجادليني، أنا على قيد الحياة وأريده لأمور أهم من ذلك العبث.

- أتعني الراقصة التي ترافقها، والحشيش الذي تدخنه؟

صرخ (فتحي) أكثر وهو يقترب منها، وعيناه تطلقان الشرر:

- لا شأن لك بحياتي، أنت من جئت بي إلى هذا العالم القذر، فقر وجوع ومذلة، وتلك الراقصة هي من وهبتني نفسها، وحنانها، وأعطتني السعادة التي لم أجدها بين جدران منزلك القبيح

- كيف تصرخ فيّ هكذا؟ كيف تجرؤ أن تسمعني مثل هذا الحديث الوقح؟ أنا أمك!

متعلقًا في رقبته، واصل (كاز) الهمس في أذنيّ الابن النحيف، الشاحب، ذي العينين الغائرتين: لا وقت للمزيد من ذاك الجدل العقيم. خذ العقد منها. إنها عجوز ضعيفة ولن تقاومك وستغفر لك كعادتها. لو تأخرت على (بشاير) أكثر من هذا، سيخطفها منك شخص آخر، ولن تذوق عسلها بعد الآن. إنها المرأة الوحيدة التي رضيت بك وعاملتك كرجل. هل تعجبك حياتك وحيدًا معدمًا؟ بع العقد وتمتع بالمال، وبعشيقتك، وبالحياة كلها.

زام (فتحي) أكثر، ومد يده تجاه عنق أمه العجوز المرتعدة.

- هاتِ العُقد.

- خاف الله يا ولدي، واستعذ به من الشيطان!

تهاوى (كاز) من فوق كتفي الابن، وتراجع للخلف فأحاطت به أطياف الملائكة، لكنه نهض مسرعًا وأفلت منهم، وتحامل على نفسه، ثمَّ تشبث بكتفي

(فتحي) مرة أخرى وانسلّ إلى داخله. ذاب في جلده، واحتل عقله وعينيه، وسيطر عليه كالدمية!

- لن أكررها مرة أخرى، هاتِ العُقد.

تراجعت الأم خطوتين، وهي تحمي عنقها بيديها، فانقض عليها (فتحي)، وجذب العقد بقوة ودفعها للخلف حانقًا. تعثرت العجوز، واصطدمت بالحائط بقسوة، ثمَّ هوت مكانها بلا حراك.

بقى (فتحي) مكانه ذاهلًا، محملقًا في جسد أمه المكوّم عند قدميه. شعر بالفزع وبالندم فجلس إلى جوارها، وهزها برفق:

- أمي... أمي....!

خرج (كاز) من جسد الابن القاتل وصرخ به: (على من تنادي أيها الأحمق؟ لقد ماتت أمك، رحلت غاضبةً عليك، أنت ملعون، ستتعفن في الجحيم).

مال (فتحي) على أمه، يتسمع أنفاسها الغائبة، وأجهش بالبكاء وهو يحاول إلباسها العقد ثانيةً:

- خذيه يا أمي، أنا لا أحتاجه، فقط أجيبيني، لا تتركيني وحدي يا أم (فتحي).

وقف (كاز) فوق رأس الشاب المنتحب وهو يضحك، ثمَّ قفز خارجًا من السقف.

كل البشر فاسقون.

(سيرا) على حق!

***

اِنتهى اليوم.

اِنحسر عنه الغضب، ليكشف عن وجع قاس يعتصر روحه ببرود.

هل هذا هو الحزن؟

هل هو حزين لأن حبيبته هجرته؟؟ أم لأن صورة الطفلين الغافيين في السيارة المحترقة لا تفارق مخيلته؟!! أم بسبب العجوز الهالكة وابنها الذي يبكي ندمًا فوق جثتها؟!

أيشعر بالفخر الآن؟

هل صار من بني (إبليس) المطيعين المؤمنين كما أرادته (سيرا)؟ هل أصبح الآن جديرًا بها؟؟

هل يهرع إليها الآن ويلقي نفسه تحت قدميها ويطلب الصفح والرضا؟ هل تستحق (سيرا) أن يطمس من أجلها ملامح الحقيقة التي بدأت تتشكل في عقله؟

فرد جناحيه عن آخرهما، وانطلق إلى عمق السماء بأقصى قوته، وكأنه شهاب يغادر الأرض!

بعد فترة توقف وحيدًا، في بقعة مهجورة من السماء الفسيحة. نظر للأرض وقد صارت كحبة عنب زرقاء تدور في سلاسة ودعة، وكأنها لا تحوي فوق سطحها صراعات أبدية مهلكة.

كتائب حراس الملائكة تحوم متأهبة عند بوابات السماء البعيدة. عشرات من الجن والشياطين يسافرون حوله غير عابئين. هدير الكون، وصفير المذنبات، وإنفجارات النجوم، وأصداح التسابيح تملأ أسماعه.

كون واسع بلا اِنتهاء، مليء بالأعاجيب، ومزدحم بالمخلوقات، ومكدس بالحكايات والأسرار.

هل ينتبه إليه أحد؟ هل ينصت إليه أحد؟، هل يعبأ به أحد؟

لم تلك الصورة المقيتة للأسرة البشرية المحترقة ملتصقة بعينيه؟ لم صوت الأم المرتعب وهي تتذلل لابنها لا يفارق أسماعه؟

ماذا أراد أن يثبت لنفسه حين قتلهم؟ أنه أقوى من بني (آدم) وبإمكانه النيل منهم وقتما شاء؟

البشر خُلقوا ضعافًا وهو اِستغل ضعفهم من حيث لا يدرون، أيسمي هذا اِنتصارًا؟ أيسمى هذا (خيرًا) أم (شرًا)؟؟ هل بنو (إبليس) شر؟؟

وهل الملائكة خير؟ ألأنهم يسبّحون الإله، ويحمون نسل آدم، ويقتلون الشياطين؟؟ هل هذا هو الخير؟؟ لم يعلمهم (إبليس) كيف يسبّحون الإله!

ثمَّ ما الفائدة من حشر أفواج البشر نحو الجحيم؟؟ أليسو كلهم ملعونون مسبقًا ومساقون إلى العذاب؟ لم إذن يكابد العناء لإذلالهم وكسب أرواحهم؟

هناك حلقة مفقودة، من تراه يساعده على كشف المزيد من المستور؟

أدركه التعب فكفّ عن التفكير، والتساؤل، والمقاومة، وترك جسده يسقط عبر الفراغ.

هل (سيرا) على حق؟!

أخيرًا شعر بحرارة الأرض وهو يعبر السحاب الأبيض، ولاح له قرص الشمس الوليد. إنه يوم جديد يشرق عليه، يوم آخر بدون حبيبته.

***

الصباح الدافئ ينشر ضياءه على المدينة كلها. الطرقات عامرة بالبشر، والملائكة، والجن، والشياطين.

يوم جديد ومعارك أخرى في الطريق!

نفض (كاز) عن نفسه همومه وتخبطه، وقرر أن يواصل المواجهة، ويخرج من حالة الترنّح والاستسلام. لا بد أن يحسم الأمر في الأيام القليلة المتبقية له فوق سطح الأرض. لا بد أن يقرر إلى أي فريق ينتمي.

اِتجه من فوره إلى منزل الشيخ (عبد الله) ليكمل ما بدأه.

كانت (سمية) نائمة، وزوجها قد غادر إلى عمله في المدرسة القريبة.

اِنسل (كاز) إلى غرفة الكتب واقترب من المصحف. لم يبالِ بنظرات الملائكة المترقبة، فقط ركز على صفحات الكتاب، واستجمع شجاعته وعاود القراءة من جديد.

لو حدث له شيء الآن فلن يجد من ينقذه.

لقد قرر أن ينتهيَ من الكتاب، أو أن ينتهيَ الكتاب منه!

البحث عن الحقيقة...

اليوم التاسع!

القاهرة 1970 بعد الميلاد.

ليس من المألوف أن يجتمع (إبليس) بمجلس الصفوة كاملًا.

طوال تاريخهم الضارب في القدم، اِجتمع بهم مرات قليلة لبحث أمور بالغة الأهمية، كقتل أنبياء البشر، أو إضرام نار الفتنة بين كبار المؤمنين، أو إشعال لهيب حروب ضخمة.

هذه المرة يبدو الأمر مختلفًا، ف(إبليس) يشعر بالتوتر والخوف.

يوقن أن هناك أمر جلل يحدث ولكنه لا يعرف تفاصيله. ما زال يحتفظ بكثير من علمه وقواه الملائكية حتَّى بعد نفيه خارج الجنة، وبإمكانه الإحساس بالخطر قبل حدوثه!

اِجتمعوا في سماء كوكب ضخم، تغطي سطحه الملتهب الغازات الثقيلة الملونة، وترزح سماؤه تحت أطنان من السحاب الثقيل.

دار(إبليس) بنظراته الثاقبة في كل المجتمعين. ألف شيطان رجيم، ومارد عتيد، وعفريت مارق، هم تعداد مجلس الصفوة الذي يساعده على إدارة حكم مملكته. تراصوا خاشعين أمامه على شكل قوس دائرة ضخم.

وقف أمامهم بهامته العالية وأجنحته العملاقة، ونقل أفكاره الغاضبة داخل عقولهم:

- هناك خلل رهيب يحدث في المملكة، وتحت عيونكم!

اِلتفتوا إلى بعضهم في تساؤل، ثمَّ قال أحدهم، وهو يحني رأسه في إجلالٍ:

- مولاي العظيم، لم يحدث شيء في مقاطعتي سوى الفتنة الصغيرة التي أبدناها عن آخرها ولم يعد لها أثر، لقد حدث هذا منذ سنوات عديدة، وأنت كنت على علم بها، ونحن نفذنا أوامرك بالإبادة.

- وبقية المقاطعات؟

أغلبهم قالوا لا خلل هناك، وقليلون كانوا لا يعلمون. اِلتفت إلى الجهلاء منهم ومد ذراعيه الطويلتين لأعلى، فارتفعت معه أجساد عشرة من شياطين الصفوة، رفرفوا يائسين بأجنحتهم القوية محاولين الفكاك، ثمَّ قربهم ناحيته وصرخ فيهم:

- تذكروا، أنتم من الصفوة أمام الرعاع فقط، لكنكم أمامي هنا مجرد عبيد وخدم!

اِمتلأت رؤوسهم بالفزع والرهبة، وصاحوا متذللين:

- رحماك أيها الملك العظيم، نحن جنودك منذ قديم الأزل وندين لك بالوفاء والإخلاص.

عاد يصرخ فيهم وكأنه لم يسمعهم:

- لن أضحي بملكي وما أعيش من أجله بسبب كسالى مثلكم يضيعون وقتهم في اللهو والكسل.

- أجل أيُّها الملك الطيب، أنت على حق!

- ستعودون إلى مقاطعاتكم وتتحرون الأمر، وأنا سأتابع كل صغيرة وكبيرة حتَّى تطمئن روحي القلقة.

- الأمر لك يا مولانا العظيم.

أرخى ذراعيه فهووا من علٍّ إلى سطح الكوكب، وغابوا في غازاته الملونة، قبل أن يصعدوا ثانية منهكين ومرتعدين إلى حلقة المجلس المنعقد.

نظر إلى الجميع وهتف بصرامة:

- وماذا عن المنبوذين؟ هل أبدتم منهم أحدًا؟

هتف أكبر شياطين الصفوة عمرًا وهو يحني هامته:

- مولاي! إنهم دائموا الهرب والتخفي، ودهاؤهم لا يستهان به، ولكننا نجحنا في إبقائهم خارج قطعاننا، وطاردناهم حتَّى أغوار السماء المهجورة، لا يقابلون أحدًا ولا يصل إليهم أحد، وكل الترّاهات التي يقولونها عن مولاي لا يسمعها غيرهم.

ساد الصمت الثقيل للحظات ثمَّ تلوّن جسد (إبليس) بلون ناري ملتهب وهتف محذرًا:

- أنتم تعرفون، الموت لمن يخونني أو يخذلني.

ثمَّ أشار لهم حانقًا معلنًا اِنتهاء الاجتماع، فانصرفوا مسرعين. اختفوا وعادوا إلى مقاطعاتهم، ليظفروا بسبب المشكلة التي تؤرق مليكهم، ولا يدرون ما كنهها!

***

قاربت الشمس على المغيب، وعاد الشيخ (عبد الله) إلى البيت، دلف إلى غرفة الكتب ليضع أوراقه على المكتب، حينما وقع كتاب قديم من فوق أحد الرفوف العالية!

نظر الشيخ إلى الكتاب وأضاء المصباح الكهربي المرتكز فوق صفحة مكتبه ثمَّ نظر حوله في فضول. النوافذ مغلقة، ولا أثر لتيارات هواء، لم سقط الكتاب إذن؟؟

زم شفتيه وتمتم:

- ربما اِهتزت الخزانة بسبب عربة ثقيلة مرت جوار البيت.

وضع أوراقه، وانحنى ليلتقط الكتاب، وتأمل عنوانه: (جوامع الكون والفساد) ل (ابن رشد)، كتاب جيد، لم يقرأه منذ زمن، عليه أن يعيد قراءته.

كان (كاز) هناك، مرتعبًا وملتصقًا بالسقف فوق رأس (عبد الله) بلا حراك، شعر أنه سيراه إذا نظر تجاهه! لقد اِستغرق في القراءة، وذاب بين الكلمات والسطور، وحينما دخل الشيخ فزع وارتجف وسقط الكتاب، بطريقةٍ ما، من مكانه!

وقف (عبد الله) فوق مقعد خشبي صغير، وأعاد الكتاب الكبير مكانه، ثمَّ اِنصرف تجاه غرفته ليبدل ملابسه ويستعد لصلاة المغرب.

بعد لحظات اِنزلق (كاز) إلى الجدار، ثمَّ جلس على أرض الغرفة ينظر حوله في ذهول. لقد اِستغرق وقتًا طويلًا في القراءة، يشعر أن رأسه سيتفتت.

أنهى قراءة كتاب المسلمين المقدس، (القرآن)، وقرأ كتاب أحاديث نبيهم، (صحيح البخاري). قرأ (تأريخ الرسل والملوك) للطبري، و(طوق الحمامة) لابن حزم الأندلسي و(رباعيات جلال الدين الرومي). قرأ ديواني شعر ل(المتنبي) و(أحمد شوقي)، وروايتين ل(الرافعيّ) و(طه حسين).

عبّ من المعرفة بنهم وظمأ لا ينتهيان. عرف قصص الأنبياء ومعجزاتهم، وتاريخ الأمم السابقة وكيف عاشوا وازدهروا وقضوا. عرف كيف تذوب نفوس

البشر عشقًا وتتحرق قلوبهم بنار الحب ولهيبه. عرف ما هو الخير وما هو الشر، على الأقل من وجهة نظر نسل (آدم)!

بقى في مكانه لا يتحرك ساعة من الزمن، ثمَّ تحامل على نفسه ونهض.

لملم حيرته، وضم جناحيه حوله، وغادر المنزل مغمومًا، ومرتبكًا، وخائفًا!

مضى صامتًا يجول في الأزقة، والشوارع، والميادين. قابل بعض الوجوه المألوفة من عشيرته وهم يغنون ويتصايحون ويتشاجرون. لم يبال بهم ولا بندائهم عليه. لم يهتم بالحراس من الملائكة الأشداء وهم يرمقونه شذرًا بينما يشق طريقه شاردًا بينهم.

لم يلتفت لشيء لأنه كان سكرانًا! سُكر من نوع خاص. سُكر من نهل من نبع العلم لأول مرة. سُكر من اِمتلاء وعيه باليقين، بعد أن كان خرابًا تعوي فيه الشهوة والغفلة.

لو ما قرأه صحيح فالأمر كارثي بحق؛ لأن فيه هلاكه وهلاك بني جنسه كلهم.

تمنى لو بقى جاهلًا، فكما يقول أبناء البشر: الجهل نعمة!

بنو (آدم) ليسوا أعداء بني (إبليس).

الملاك (عزازيل) الذي رأى الله بعينيه، وشهد جلاله وجبروته وتفرده، اِستكبر أن يطيع أوامره، فصار (إبليسًا) ملعونًا، بينما التواضع في قلب (آدم) جعله يقر بالخطأ ويندم عليه، فظفر بالعفو وبالمساعدة اللامشروطة واللا محدودة من الإله.

عمر الشياطين من عمر البشر، حينما خُلق (آدم)، أول البشر، ظهر (إبليس)، أول الشياطين!

البشر كافحوا، وتطوروا، وأبدعوا مع مرور الزمان، بينما بقى بنو (إبليس) على حالهم، عصاة، هاربين، عابثين، يملأهم الغل والانتقام.

ترنح وكاد أن يَهوى على الأرض، يبدو أن القراءة اِستنفذت كل طاقته. بحث في صناديق القمامة عن أي شيء يصلح للأكل وعبّ من برك الماء الراكد حتَّى اِرتوى.

أخذ يسير على غير هدى، وفي النهاية تهاوى جالسًا، وأسند ظهره على سورٍ حجري قصير.

بعد أن اِسترد بعض عافيته، اِلتفت خلفه فأبصر بناءً أبيضًا عتيقًا، له قبة عالية. رفع نظره فوق القبة فوجد صليبًا ذهبيًا ضخمًا يقف في شموخ. إنه يستند على سور كنيسة للأقباط. لحظتها التمعت في ذهنه فكرة مثيرة.

لم لا يدخل ويجرب حظه هناك؟ يبحث عن الحقيقة في دين آخر ويقرأ كتبًا أخرى، فربما يكون للحقيقة وجه آخر!

***

لم تتصور (سيرا) أن تنتابها مثل هذه المشاعر!

منذ أن أبيد قطيعها وبدأت رحلة الفرار الطويلة وهي تشعر بتغير لم تستطِعْ تفسيره، صارت أرق وأضعف مِمَّا كانت عليه من قبل.

حين تشاجرت مع (كاز) وتركته وراءها شعرت أنها تركت قطعة من روحها معه. اِستدارت وعادت ولكنها اِختبأت وراء تلة عالية تراقبه عن بعد. شغفها به لا تفسره مجرد علاقة حب بين ذكر وأنثى، هناك قوة أكبر منها تجبرها على الالتصاق به، وكأنها خُلقت لتراقبه وتحميه وتساعده.

أشفقت عليه حينما رأته غاضبًا حزينًا مشوشًا يذيق البشر الويلات. ودت

لو اِلتقفته بين أحضانها، لكنها تحكمت في مشاعرها وواصلت خطتها. لا بد أن تفعل كل ما في وسعها كي يتوقف عن سعيه المشؤوم. لا بد أن يعود إليها وقد اِقتنع بعدم جدوى ما يفعله.

لكنه على عكس ما تصورت، واصل عناده وذهب إلى منزل (عبد الله)، فتبعته دون أن يشعر وراقبته عبر الجدران كي تغيثه في أية لحظة.

شاهدته يخرج بعد وقت طويل، مهمومًا منهكًا يترنح، ثمَّ رأته يدنو من الكنيسة وعرفت أنه سيدخلها لا محالة، عرفت أنه يتعمق في رحلته المجنونة أكثر وأكثر.

وعرفت أنها خسرت المعركة، وأنه قد لا يعود إليها ثانية!!

***

أنت قلت في قلبك أصعدُ إلى السموات، أرفعُ كرسيّ فوق كواكب الله، وأجلسُ على جبل الاجتماع في أقاصي الشمال، أصعدُ فوق مرتفعاتِ السحاب، أصيرُ مثل العليّ، لكنك اِنحدرت إلى الهاوية، إلى أسافل الجب.

سفر(أشعياء).

***

وقف الأب (يوسف) بهامته العالية، يجهز لقداس الغد، ويرقب كل شيء بعينيه الخضراوتين الطيبتين، بينما اِنتشر من حوله صِبية الكنسية يعملون بلا توقف ليتأكدوا أن كل شيء على ما يرام. الماء المقدس مكانه، الشموع وباقات الزهور متناسقة في الأركان وأمام الهيكل، زجاج النوافذ الملون نظيفًا، وكذلك الكنبات الخشبية الطويلة تلتمع بدون ذرة تراب واحدة.

ترك الأب (يوسف) الصِبية، ومضى يراجع مع جوقة المرتلين، من الفتيان

والشباب، تراتيل الغد المقدسة. الكل يرتدون أروابًا بيضاء فضفاضة مزينة بصلبان ذهبية صغيرة، ويرتلون الأناشيد في حماسة وبهجة.

دخل (كاز) بحذر من باب الكنيسة، وتقدم ببطء تجاه صحنها الواسع، القابع تحت قبة شاهقة مزركشة. نظر مأخوذًا إلى ثريا قديمة تتدلى من مركز القبة في فخامة ووقار. أسرته أصوات التراتيل الشجية فلم ينتبه إلَّا وهو واقف قرب المنشدين ينصت مبهورًا!

بغتة توقف الأب (يوسف) عن الترتيل وقد شحب وجهه. أشار للجميع بالصمت، فدب السكون في أرجاء الكنيسة. تلفت حوله في ترقب، لقد شعر بشيء يخطف قلبه للحظة، وكأن هناك من عبر إلى جواره، أو ربما من خلاله!

اِلتفت الأب (يوسف) إلى تمثال العذراء (مريم) المباركة، ورسم بأصبعه علامة الصليب بين جبهته وكتفيه فوق ردائه الصوفي الأسود، دار بعينيه في أرجاء المكان، وقبض على صليب فضي معلقٍ حول رقبته، ورفعه أمام شفتيه وهو يتمتم هامسًا بأدعية ما، ثمَّ أرخى الصليب ثانية ونظر إلى الجوقة، وأشار لهم ليعاودوا الترتيل من جديد، وفوق وجهه الحليق اِرتسمت نظرات متوترة.

لم يعتقد (كاز) أن القس سيشعر به، ولكنه فعل! فتسلل بين الكنبات الخشبية بسرعة، وعبر الحوائط إلى ظهر الكنيسة حيث تقع غرفة القس. دار بنظره في الغرفة ووجد فراشًا بسيطًا، وطاولة مستطيلة بمقعدين، ومكتبة خشبية قديمة تضم مخطوطات وصحائف عديدة. تسلل فيما بينها بهيئته الدخانية، حتَّى وجد كتابًا كبيرًا له غلاف جلدي سميك ومكتوب عليه باللاتينية: (العهد القديم).

بقى للحظات مترددًا ثمَّ قرر الولوج.

غاص بنظره تحت الغلاف السميك، وبدأ يقرأ الكلمات اللاتينية المكتوبة بحبر الكربون الأسود.

شعر بالتهيب والخوف.

جال بين الحروف والعلامات، وعاش داخل الأفكار والمعاني، وبدأ يفهم العظات والأحداث. شعر وكأنه يرى التاريخ من جديد.

اِنتهى أخيرًا من العهد القديم ثمَّ اِنكبّ على الأناجيل الأربعة يقرأها.

لم يجد ذِكرًا لواقعة عصيان (إبليس) لأوامر الإله بالسجود ل(آدم)، لكنه وجد أن الكبر والغطرسة ملآ قلب (إبليس)، وظن أن بإمكانه مناطحة الرب فطرده الإله من مملكته السماوية وأسقطه إلى الأرض، وصب عليه غضبه ولعناته، هو ومن تبعه!

ربما اِختلفت ديانات البشر في الشكل أو العقيدة، ولكن الجميع، الأحباء والفرقاء، أجمعوا على أن (إبليس) شيطان ملعون تكبّر على خالقه وأنه أصل الشرور في هذا العالم.

اِشتد الإنهاك عليه لكنه واصل الغوص في صفحات الكتب والمراجع، مكتبة القس أصغر من مكتبة الشيخ ولكنها أقدم.

قرأ (الزبور) و(رسائل الكاثوليكون). قرأ الوجود والعدم ل(جان بول سارتر)، وهاملت ل(شكسبير)، والبؤساء ل(فيكتور هيجو).

الكتب عالم منفصل بذاته، عالم أبرح من عوالم الإنس والجن والملائكة!

مر عليه الوقت سريعًا حتَّى اِنتصف الليل. بلغ منه الإعياء مبلغه، فتوقف عن القراءة، وخرج مترقبًا إلى صحن الكنيسة.

ما زال الأب (يوسف) في المحراب يصلي وحيدًا خاشعًا على أضواء الشموع.

تسلل (كاز) ملتصقًا بالجدران في حذر فتوقف القس عن الصلاة والتفت للخلف كالملدوغ، ثمَّ نهض ورسم علامة الصليب مجددًا، قبل أن يشرع في رش قطرات الماء المقدس بأطراف أصابعه في كل مكان، وهو يتمتم بأدعية لحرق (إبليس) الملعون، فأسرع (كاز) بالفرار من السقف.

ضمته السماء المظلمة، فأخذ يحوم فيها حتَّى وصل إلى نفس البقعة الصحراوية التى كانت تجمعه مع (سيرا) قبل ليلتين من الآن.

الحيرة تملأه، والوحدة تخنقه، والحزن يكاد أن يقضي عليه.

تمنى لو خُلق مثل البشر حتَّى يبكي لساعات قبل أن يذهب في النوم.

لكنه لسوء الحظ مخلوق من النيران، لا يمكنه البكاء، ولا يستطيع النوم!

العودة!

الليلة الثامنة والعشرون من هبوطه على الأرض.

(كاز) مُلقَى فوق رمال الصحراء، شاخصًا ببصره إلى السماء الصافية وبدرها الذي قارب على تمام الاستدارة. تمنى لو أن معه (سيرا) لتخفف عنه، ولكنها واصلت عنادها ولم تأت، وهو أصر على التحدي ولم يتبعها.

زار بيت الشيخ وحجرة القس مرات عديدة، واستمع إلى تسابيحهما وصلواتهما في قلب الليل.

تصفح الجرائد، وذهب لدار الأوبرا، وسمع الموسيقى وشاهد الاحتفالات. زار المتحف القديم وقرأ كل البرديات والصخور المنقوشة.

جرع من علم البشر، وثقافتهم، وماضيهم، وحاضرهم بلا حدود.

هو لم ير بنفسه أنبياء ولا معجزات. كان محتجزًا بعيدًا في عمق السماء يخدم (كاتولا) ويدفع ثمن فضوله الزائد. سمع فقط القصص المتناثرة من أفواه العائدين، لم يكنْ موجودًا بكيانه ليعيشها أو يشارك فيها. لقد فاته الكثير!

وعندما هبط إلى الأرض أول مرة، وتعامل مع اِبن (آدم) وجهًا لوجه، عرف وقتها أنه مخلوق اِستثنائي، خليط مبهر ومعقد من الروح والجسد والعقل، مزيج عجيب متغير من الإيمان والكفر، من الطاعة والفجور، من الرضوخ والتمرد.

في شهر أرضي واحد، عرف (كاز) ما لم يعرفه في عشرين ألف عام أرضي، هي كل عمره.

لكن هناك غلالة شك رقيقة كانت تؤرقه!

ماذا لو كل ما قرأه كذب، وأن الكتب المقدسة مزورة؟؟ ماذا لو أن (إبليس) مظلوم بحق؟!

كيف يصل إلى الحقيقة الخالصة؟؟ ما هو البرهان الذي ليس من بعده برهان؟!

رفع عينيه إلى عمق السماء السحيق يرجو المساعدة.

وفي لحظة فارقة أدركه الجواب، فارتعد!

اِعتدل في إجلال والتمعت عيناه في الظلام، لمعة ملؤها الرهبة والأمل والطمأنينة.

كيف غابت عن ذهنه هذه الفكرة؟؟

إن كان مبتغاه هو الوصول إلى الحقيقة الخالصة، فليصل إليها إذن من منبعها وخالقها ومدبرها، لا بد أن يصل إلى أصل الحكاية ومن صاغها ومن بدأها.

لا بد أن يصل إلى الإله!!

***

مرت ليلة أخرى، واكتمل البدر في السماء، وحان وقت الرجوع.

في صحراء موحشة، تسكنها العقارب والأفاعي، اِنفتحت البوابة المضيئة، لكن لم تعبرْ منها أفواج جديدة من الشياطين إلى الأرض!

صرخ الحراس في المغادرين فتحركوا ببطء، ودب فيهم صمت مخلوط بالذهول والقلق.

أين الوافدون الجدد؟؟

كان الجلادون يشرفون على كل شيء بدقة بالغة وبأعداد غفيرة. لم يكونوا بتلك الكثرة من قبل. هكذا فكرت (سيرا) وهي تراقب (كاز) عن بعد وهو يسبح بجسده خلال البوابة الواسعة، ثمَّ اِنتظرت دورها في العبور وهي مرتعبة.

ترى، ماذا حدث؟! هل انفضح أمرهما؟!

حط الجميع على سطح كوكب جديد، خرب ومظلم كالمعتاد، وبسرعة إلتف الكثير من الجلادين حول الواصلين، وهم يشرعون حرابهم المضيئة، ثمَّ ضيقوا الخناق عليهم حتَّى تكدسوا متلاصقين.

هناك أمر غير طبيعي، هناك كارثة في الأفق!!

مرقت (سيرا) بين الأجساد المكدسة حتَّى وصلت إلى (كاز). التفت إليها والفرح يملأ ملامحه. فأسرعت تبادره دون أن تنظر إليه:

- هل عدت إلى صوابك؟

لم يجب سؤالها، فقط همس:

- أحبك!

نظرت إليه غير مصدقة ردة فعله، وقبل أن ترد، علا صياح الجلادين، وظهر من خلفهم عشرة من مردة الصفوة المهابين الضخام.

عشرة؟؟ واحد فقط كفيلٌ بإخافة آلاف الشياطين فما بال عشرة.

ثمَّ ركع الجلادون ومردة الصفوة، ليظهر من ورائهم الملك (إبليس) بناره ودخانه!! ومن خلفه وقف تابعه وواحد من خدمه المخلصين، (خوماش).

صاح البناؤون كلهم في إجلال وإكبار، ثمَّ سجدوا فوق أرض الكوكب القفر.

الملك الطيب بنفسه هنا؟؟

حملق (كاز) في (إبليس) للحظات غير مصدق، ثمَّ أسرع يحني رأسه مع الباقين.

دب صمت ثقيل بينما (إبليس) واقف فوق الرؤوس عاليًا بتكوينه العملاق وأجنحته الهائلة. إنها المرة الأولى التي يرى فيها (كاز) (إبليس) بهذا المظهر المهموم. أخاديد وجهه العجوزتحمل الكثير من الغضب، والتوتر، والانتقام.

شعر للحظة أنه ضعيف ووحيد وجدير بالشفقة!

ماذا لو أن (إبليس) عرف ما حدث على الأرض؟

اللعنة! لا تفسير آخر لما يحدث.

أكيد أنه سيغوص، بروحه العاتية، في عقول الجميع ليقرأ ما فيها.

خطرت تلك الفكرة ل (كاز) وهو منحنٍ برأسه فوق الأرض فانتابه الهلع، وبدأ جسده في الارتعاد. سيعرف (إبليس) كل شيء. سيكشف كل ما فعله في منزل الشيخ وغرفة القس.

شعرت (سيرا) بجسده المرتجف، فلامسته بكتفها كي يطمئن، حينها خطر له الحل الوحيد. سيحوّل مجرى تفكيره لمسار آخر. لن يترك بين أفكاره فراغًا يدلف منه (إبليس) إلى خبايا أسراره، سيفكر في (سيرا)، ستصير كعادتها دومًا منقذته.

لكز (سيرا) وهمس في عجلة:

- سيدلف إلى عقول الجميع ليقرأها، فكري في أي شيء إلّا ما حدث معنا على الأرض، إنه الحل الوحيد كي لا يقرأ أفكارنا!

- ماذا؟ ولكن.

- نفذي فقط وسأشرح لك لاحقًا

- أنت قوي وتستطيع منعه بعقلك، لكن أنا.

- أنت قوية مثلي، حاولي حبيبتي، ابذلي قدر اِستطاعتك.

في اللحظة التالية ملأ ذهنه وروحه وكيانه بصورة (سيرا). لا شيء عداها الآن بداخله. عبأ عقله بالضوضاء والألوان ومشاهد الحب.

عليه ألا يفكر في (إبليس)، ولا يذكر حتَّى اِسمه!

تذكر (سيرا) حينما رآها تتبعه في أول ليلة له على الأرض، كم كانت خائفة وغامضة وفاتنة.

تذكرها في صورتها البشرية، هناك على ضفاف النهر، وسط الخضرة ورائحة العشب والطمي، وتحت بصيص النجوم البعيدة، سمرتها المسكرة، وعيناها الساحرتان، وشعرها الطويل يشاكس هبات الرياح الباردة.

فجأة تشوشت الصور في مخيلته، هناك ثقل يتمدد وينتشر ويسحق عقله، إحساس بالخنوع يجذب رأسه للأسفل، مجسات خفية تمتص ذاكرته وإرادته وكيانه كله، (إبليس) حتمًا هنا، إنه بداخله، يحاول أن يقرأ أسراره، ويكشف عورة عقله!!

فليواصل الصمود.

(سيرا) في صورتها الشيطانية تملأ عقله وهي ترتجف وتعوي كذئاب الأرض بين أحضانه، الرغبة الجائعة تملأ ملامحها ووهج نيرانها يكاد يحرقه.

ماذا يساوي وجوده إن لم تكنْ (سيرا) معه؟ كيف يكون للحياة معنى من دونها؟! العدم ورحيلها عن حياته سواء، لم يتصور أنه متيم بهواها إلى تلك الدرجة!

ما زال (إبليس) هناك يعبث في عقله. عليه أن يواصل الصمود.

تذكر هيئتها الثعبانية، حيّة ضخمة، خضراء، براقة، ملفوفة حول جسده الثعباني تعتصره بغير رحمة، وفكاها مفتوحان عن آخرهما. ناباها المعقوفان يلتمعان تحت أنوار القمر، و يقطران عليه عسلًا شهيًّا وخمرًا باردًا. عيناها حمراواتان بلون العشق، ولسانها المشقوق يرتعش في نشوة و......

فجأة، زال الثقل، وشعر برأسه خفيفة مرةً أخرى.

اِنسحبت أذيال المجسات الخفية إلى خارج عقله. لا بد وأن (إبليس) تركه وانتقل لشيطان آخر. لقد نجح في الاختبار. لم يكنْ (إبليس) بتلك القوة الخارقة التي يتصورها الجميع!

مباشرة بعدها، شعر ب(سيرا) إلى جواره تئن وترتج. أصابه القلق والخوف عليها. تمنى لو اِستطاع أن يحميها ولكن ليس هناك ما يستطيع فعله، قاومي يا حبيبتي، صمودك هذه اللحظات سينقذنا من الهلاك وقد يغير كتابة المستقبل. مر الوقت بطيئًا ثمَّ هدأ جسدها تمامًا وخبي أنينها، لقد أطلق (إبليس) سراح عقلها، ويبدو أنه لم يظفر بشيء!

بقى ساجدًا لزمن طويل، يسمع أنينًا خافتًا أو صراخًا قصيرًا يصدر من هنا أو من هناك، وأخيرًا دوى صوت (إبليس) في الأذهان:

- اِنهضوا يا أحبائي!

نهض البناؤون والجلادون منهكين، وهم ينظرون في اِنكسار لمليكهم الذي أكمل:

- أبنائي، أشعر بخيانة كبرى تجري بين صفوفكم، هناك من يريد التمرد وجلب الخزي والعار على جنسنا كله.

نظروا لبعضهم البعض في تحفز وغضب. تلك مفردات لم يألفوها في عالمهم.

تبادلت (سيرا) النظرات في خوف مع (كاز) الذي صرخت عيناه تتوسلان إليها أن تتماسك.

- من يعرف الخائن يفكر به فقط دون أن ينطق اِسمه، لا بد أن نتطهر من إثمه وعاره، من يرشدني إليه سيأخذ عامًا كاملًا فوق الأرض للراحة واللهو.

صمت للحظات وهو يدور بعينيه بين الجميع، ثمَّ قال:

- حسنًا، لو اِرتاب أحدكم في شيء فليطلعني عليه، فقط يذكر اِسمي وسأكون عنده في لحظتها

ثمَّ أدار نظره تجاه (كاز)، وبقى محملقًا فيه للحظات قبل أن يعبر الصفوف ويتجه نحوه، ومن خلفه تأهب تابعه الأمين (خوماش).

أشار (إبليس) ل(كاز) كي يقترب، ففعل والهلع يكبل خطواته. هل انكشف؟؟؟

- أنت (كاز) أليس كذلك؟

- أجل يا مولاي، أنا هو، في خدمتك.

- كيف حالك مع البنائين؟

- شرف عظيم أن اِبني صروح مولاي الملك الطيب.

- لقد تنبأت لك بمستقبل زاهر حينما حملتك بين يداي قديمًا.

رفع (كاز) عينيه إلى وجه (إبليس) ونظر مندهشًا للحظات، ثمَّ همس:

- حقًا؟!

زام (خوماش) خلف سيده، فلم يسبقْ أن رفع واحد من البنائين الرعاع نظراته إلى وجه الملك، لكن (إبليس) أسكته وتابع:

- أجل يا (كاز)، أنت مختلف عن الآخرين، كلمتني عنك (كاتولا) كثيراً، هل تود أن تكون واحدًا من أتباعي المقربين؟؟

- ماذا؟! طبعًا يا مولاي، إنه شرف لا يضاهيه شرف.

بقى الوضع هكذا للحظات، نظرات تذهب وتعود بين الاثنين، ثمَّ اِرتفع (إبليس) بسرعة عائدًا إلى كبد السماء السوداء واختفى!

ظل (خوماش) يحدق مرتابًا في (كاز)، وشعر أن هناك شرٌ آت من هذا البنّاء الحقير. شرٌ قد يُفقده مكانته بالقرب من (إبليس)، تلك المكانة التي قاسى كثيراً لينالها، ثمَّ اِنتبه أن سيده قد غادر فانفلت مذعورًا ليلحق به.

بقى السكون مطبقًا على المكان والجميع يحدقون في (كاز) مذهولين.

بعد لحظات اِنسحب وجهاء الصفوة في هدوء، ثمَّ عاد تدريجيًّا صراخ الجلادين يهز السماء، فرجع الجميع إلى أعمالهم، وإن بقت أنظار البعض معلقة على تابع الملك الجديد!

هوي (كاز) جالسًا على الأرض، وشعر أنه على وشك الاحتراق من فرط فزعه. هرعت (سيرا) إليه ثمَّ مالت عليه وهتفت ملتاعة:

- ما الذي حدث للتو؟ أيعرفك الملك (إبليس) من قبل؟

- لا أدري.

- أنه يريدك بالقرب منه، كيف يعرفك بالاسم ولا تخبرني؟!

- لا أدري، قلت لك لا أدري

- حسنًا، هون عليك واهدأ، لقد رحل.

نظر إليها وهمس في فزع:

- لقد ميزني من بين عشرات الألوف، إنه يراقبني!

صمتت للحظات ثمَّ همست في توتر:

- أنت محق، الوضع حرج، لقد أصبحت حركاتك معدودة عليك، لذا يجب أن تقرر بسرعة لأي فريق تنتمى.

لم يعقب، فقط نهض متثاقلًا وهو يستند عليها.

(سيرا) محقة كعادتها. لا بد أن يزيل أية شكوك تحوم حوله. لقد صار الأمر أصعب بكثير بعد أن أصبح شهيراً ومميزًا!!

***

كان التشييد صعبًا هذه المرة، والصرح شاهقًا للغاية، أعلى من أي بناء سابق. الصخور ملساء ومن الصعب تثبيتها، والكوكب بأسره مضطرب وكأنه واحد من قيعان الجحيم. الجلادون في منتهى الغلظة والقسوة، والأمور متوترة بحق. يبدو أن الغرض ليس البناء بقدر ما هو كسر عزيمة الصامتين والمتسترين، وتحفيز الواشين على كشف المستور.

هتف (كاز) وهو يحمل عن (سيرا) صخرة ضخمة :

- لقد جن جنونه، إنه ينتقم من الجميع.

تلفتت حولها، ثمَّ همست:

- لا تتكلم عنه هكذا، ماذا دهاك؟ إنه الملك.

- آه لو يعرفون حقيقته.

- كلنا نعرف حقيقته وكلنا نحبه، أنت الوحيد المارق، أتذكر؟!

نظر إليها معاتبًا، ثمَّ رفع الصخرة وطار بها ليضعها مكانها فوق الأخريات.

ظلت تتابعه بنظراتها القلقة. هي تحبه ولا شك، لا تعرف مرادفًا مناسبًا لإحساسها غير هذا.

لكن المأفون (كاز) فقد عقله؛ يريد أن يناطح (إبليس). إنه لا يدرك أي مصير

ينتظره لو اِستمر في ما يفعله. إنه لا يواجه (إبليس) المهوول فحسب، بل يواجه نواميس الكون كلها بمفرده!

لا بد لمغامرته الحمقاء تلك أن تنتهي فورًا.

- أين الصخرة التالية؟؟

اِلتفتت مذعورة، لتجد واحدًا من الجلادين الضخام، بشعي المظهر، واقفًا خلفها، وقبل أن ترد هوى بسوطه على وجهها فسقطت، وشعرت بألم عاصف يمزق كيانها. تلوّت وتكوّرت على نفسها، فصرخ فيها:

- انهضي يا حمقاء، لا وقت للكسل، المرة القادمة فيها موتك!

نهضت من فورها، والألم يشل وعيها المضبب. لمحت (كاز) قادمًا مسرعًا تجاه الجلاد والغضب يملأه، ففتحت جناحيها، وحامت حول الجلاد لتقف حائلًا بينه وبين (كاز)، وصاحت:

- أمرك يا سيدي الجلاد، فورًا!

هز الجلاد رأسه الغليظ المطموس الملامح وقد أعجبه رضوخها، من النادر أن يناديه أحد ب (يا سيدي)! صرخ بقوة لإثبات مزيدًا من النفوذ والسيطرة، ثمَّ خفق بجناحيه الضخمين، وعاد إلى مكانه الأول فوق كومة من الصخور يراقب الجميع.

- هل جننت؟

قالتها (سيرا) ل(كاز) وهي تدفعه بعيدًا، وتابعت:

- عد لعملك، ستتسبب في موتك، اِنصرف، أنا بخير.

وعادت إلى حضن الجبل الأسود تحطم أحجاره العملاقة، وهي تشعر بالسعادة رغم الأم المبرّح، هناك من يخاف عليها ويحميها بحياته.

كم هذا مثير ورائع، وغريب!!

وحيد!

لا بد أن يجد من يصغي له. ولكن من؟ فزملاؤه ليسوا كثيرين.

تذكر (أشتون)، إنه دومًا مستاء من حياته وناقم على الجلادين وقسوتهم وغبائهم، يبدو مناسبًا كي يبدأ في إقناعه للانضمام إليه.

دار (كاز) ببصره في محيط السماء ثمَّ رأى (أشتون) حانقًا كعادته وهو يعاني في تثبيت صخرة ضخمة مكانها، فهرع إليه وساعده. اِلتفت إليه (أشتون) للحظات، ثمَّ واصل العمل بدون أي كلمة إضافية. هذا هو الطبيعي بين الشياطين، فهم لا يعرفون الشكر!

اِقترب منه (كاز) ثانية ثمَّ قال بعد تردد:

- العمل أصبح كثيراً.

نظر له (أشتون) مليًا، ثمَّ تلفت حوله وهمس:

- بالفعل، أنا دومًا أقول هذا، لقد صار الأمر سخيفًا بحقٍ.

- لم لا يساعدنا الجلادون؟

- إنهم كسالى مغفلون، لا يتقنون سوى الصياح والضرب والقتل.

- صدقت، ولهذا اِختارهم الملك (إبليس).

صمت (أشتون)، ونظر متشككًا ل (كاز) ثمَّ هتف:

- ماذا تقصد؟

تصنع (كاز) الإنشغال بتثبيت صخرة أخرى وهتف:

- لا شيء، مجرد فكرة جالت في خاطري.

- حسنًا، اِنتبه جيدًا لأفكارك الحمقاء، ما تقوله قد يكلفك حياتك البائسة، حتَّى لو الملك صديقك المقرّب!

بعد أن اِنتهيا من تركيب بعض الأحجار في جدار الصرح هتف (كاز):

- تُرى لم هبط الملك بنفسه علينا؟؟ أليس غريبًا؟

نظر له (أشتون) وهمس متعبًا:

- بالفعل، ولكن من الجيد أن نرى ملكنا الطيب ونسمع صوته.

- فعلًا، أنت محق، نحن محظوظون.

- أنا أتوق لأعرف الخائن الحقير الذي يبحث عنه الملك بين صفوفنا.

- وماذا ستفعل حينها يا (أشتون)؟

- سأستدعي مليكنا الطيب كما أمر وبعدها سأحرق هذا الخائن البغيض بنفسي.

مر بعض الوقت قبل أن يهمس (كاز):

- ولكن ماذا يريد ذلك الخائن؟ أعني لم هو خائن؟

صمت (أشتون) ومضى يفكر.

ماذا تعني كلمة (خائن)؟، ومن يخون من ؟؟ هل يريد الخائن أن يكون ملاكًا مثلًا؟، أم هو طامع في عرش الملك (إبليس)؟ الأمران كلاهما مستحيل. وعندما لم يجد إجابه داخل مستودع أفكاره الضحل أسرع يصيح:

- لا أعرف ولا أهتم بذلك.

- أليس من المحتمل أن يكون ذلك الشيطان بريئًا وأنه يريد مصلحة الجميع؟

- طالما أن الملك قال بيننا خائن فهو على حق، أتشكك في كلام الملك يا (كاز)؟؟

- أبدًا أبدًا، لا بد أن نجد ذلك الخائن.

- أحسنت، إن شككت في أحد أبلغني لأعاونك، ونقتسم المكافأة سويًّا!

هز (كاز) رأسه في تأكيد وحماسة، ثمَّ فرد جناحيه وغاص للأسفل، وسط المتزاحمين، ليحضر صخرة أخرى. إنه ما زال يملك الأمل في (أشتون). عاد حاملًا الصخرة ووضعها مكانها، ثمَّ هتف محادثًا زميله:

- ألم تفكر في حقيقة ما يحدث من حولنا؟

- وما الذي يحدث من حولنا؟

- أعني ذلك الكون الواسع، و(الملائكة)، وما نفعله ببني (آدم)، والوعد بدخول الجنة من جديد.

- لا، لم أفكر في مثل هذه الأشياء قبلًا، ولماذا أفعل؟

- إذا فكرنا في ما يجري حولنا، وأعملنا عقولنا كما ينبغي قد نفهم كل شيء.

- وماذا سيحدث عندما، نفهم كل شيء؟

- وقتها يمكننا الحصول على حياة أفضل من تلك التى نحياها الآن، ويصبح لوجودنا غاية أسمى.

- أية غاية؟؟

- أن نصبح جزءًا من نسيج الكون، نتحد معه بدلًا من أن نفر منه، نفنى

فيه فيزداد بهاءً، وحين يتلاشى نُخلق من جديد، في حلة أبهى وأبدية لا تنتهي، ماذا تظن؟؟

نظر له (أشتون) طويلًا في بلاهة ثمَّ هتف في ضيق:

- كلامك غريب لا أفهمه ولا أستريح له، اِنصرف إلى عملك قبل أن ينهال علينا الجلادون بالسياط، ودعك من نسيج الكون وبهائه، واتركني لحالي!

هز (كاز) رأسه موافقًا، وابتعد بسرعة تجاه أرض الكوكب ليحمل مزيدًا من الصخور.

أي دعم يبحث عنه وسط هؤلاء الحمقى؟ لن ينصت إليه أحد.

***

بعد ساعات من العمل، تسرب (كاز) من بين صفوف المتكالبين حول الصرح، ثمَّ اِقترب من (سيرا) وبدأ يحطم الصخور، ثمَّ هتف في حذر:

- هل أنتِ بخير؟

- نعم.

- هل فكرت في ما سوف نفعله؟

اِقتلعت صخرة ضخمة من مكانها، وألقتها جانبًا في حنق، وقالت دون أن تنظر إليه:

- نعم فكرت، أنت في خطر، ويجب أن تتخلى عن خبالك هذا، البشر كاذبون!

- كلهم كاذبون؟

- نعم، كلهم أفاقون.

- وكل الأنبياء مخادعون، وكل الديانات ضلال، وكل الكتب مزيفة؟

- هكذا بالضبط.

- ألن تساعديني إذن؟

توقفت عن التكسير وفحّت في وجهه:

- أساعدك على ماذا، على الموت؟، أنسيت أن (إبليس) يريدك بالقرب منه؟، ألم تلحظ نظرات (خوماش) الحانقة تجاهك؟ لو انكشف أمرك لن تموت وحدك، سنفنى جميعًا معك.

- ولهذا يجب أن أتصرف بسرعة

- ممتاز، تصرف بمفردك إذن، اذهب!

تركها غاضبًا، وانطلق إلى قلب السماء يحوم حول الصرح الشاهق.

لن يجد من يستمع له، لا زملاؤه ولا خليلته.

لا بد أن يعمل وحيدًا!

***

اِختبأ (أشتون) داخل أحد تجاويف الصرح الشاهق، في مكان لا يستطيع الجلادون أن يبصروه. كان منهكًا جائعًا ويحتاج بعض الراحة.

اللعنة على هذا العمل المهين!

لا بد أن يبحث عن حياة أخرى أكثر راحة، ولكن كيف وهو لا يملك أية مؤهلات تمكنه من تحقيق ذلك، الأمر لا يحتاج إلى مجهود ليدرك أنه كسول محدود الذكاء.

اِلتقت نظراته مصادفة ب(كاز) وهو يحوم حول (سيرا) ويتكلم معها. تبدو غاضبة منه، ويبدو عليه التوتر والقلق، هناك شيء مريب يجري.

لقد زامل (كاز) في الحظيرة حينما كانا صغارًا وطالما كرهه وحقد عليه؛ لأنه دومًا تباهى بقوته واعتبر نفسه مختلفًا عن الآخرين.

ثمَّ ما سبب الحوار العجيب الذي تبادله معه قبل قليل؟ ليس من عادات (كاز) التحدث مع أحد.

لقد اِشتم في كلماته رائحة عصيان وتهكم وغضب وربما......... خيانة!!

هل هذا ممكن؟؟؟ ولم لا؟؟!

اِبتسم (أشتون) في قلب مخبئه المعتم، وقد سطعت في عقله فكرة رائعة رغم غرابتها، عليه أولًا أن يبقي نظراته على (كاز) كي يتأكد من صدق حدسه.

رغم أن الملك عرض على (كاز) منصبًا رفيعًا أمام الجميع، إلَّا أن هذا الشرف قد يذهب إليه هو لو أحسن التصرف، وأثبت أن (كاز) هو الخائن المقصود.

عليه فقط أن ينتظر ويراقب عن كثب!

***

اِنقضى يومان دون فترة راحة واحدة.

كان العمل شاقًا، وانهار معظم الصرح عدة مرات، وأعاد العمال البناء في كل مرة. الجلادون مستنفرون إلى أقصى درجة، حتَّى أنهم أحرقوا خمسة من البنائين لأسباب واهية، والكوكب لا يكف عن الإرتجاج والتصدع ونفخ نيرانه إلى جوف السماء.

اِقترب (كاز) من (سيرا) ليحمل مزيدًا من الصخور. الإعياء يكاد يقتله، كيف يمكنه أن يواصل؟؟ فهمست (سيرا) قلقة:

- تبدو متعبًا، هل أنت بخير؟

- غريبة، هل تهتمين بي؟

- أصبحت تعرف السخرية مثل البشر! انا أتكلم بصدق، تبدو في حال مزرية.

- بالفعل، وأوشك على السقوط من الإعياء، لقد نفذت معظم طاقتي على الأرض.

- اللعنة يا (كاز)! حاول الصمود حتَّى موعد الراحة القادم، وربما نجد حلًّا.

- سأحاول.

حمل صخرة وطار بعيدًا، ترنح لوهلة ولكنه تماسك وواصل الصعود.

تظاهرت (سيرا) بالانشغال في تحطيم الصخور، ولكنها كانت تفكر في مخرج حكيم من هذه الأزمة الخطيرة رغم علمها باستحالة الأمر.

فجأة ارتفع صوت الأبواق وصاح الجلادون معلنين عن توقف العمل، فخرّت الشياطين كلها على أرض الكوكب، أخيراً سينعمون ببعض الراحة.

في حضن الجبل الشاهق المحطم، زحف (كاز) صوب (سيرا) وجلس إلى جوارها، وقال لاهثًا:

- لقد وجدت الحل، سأهرب!

صرخت مذعورة:

- ماذا؟

تلفت حوله ثمَّ همس بحذر:

- سأهرب، هذا هو الحل الوحيد، أنا لا أقوى على الاستمرار مشتت هكذا.

- لكنهم سينتبهون لغيابك.

- لن يشكوا في الأمر، سيظنون أن (إبليس) استدعاني ولن يجرؤ أحد على تقصي الأمر.

صمتت للحظات مفكرة ثمَّ هتفت:

- و(إبليس) سيظن أنك لا زلت هنا تشيد الصرح.

- بالظبط، لن يفطن أحد لما يحدث.

- لكن ماذا لو عاد وبحث عنك؟

- لن يحدث هذا قريبًا، خاصةً وسط الهرج والمرج الدائرين بسبب ذلك الخائن.

- ولكن إلى متى؟ إن آجلًا أو عاجلًا سينفضح أمرك، ويبدأ الجميع في مطاردتك.

- أعرف، لكن المهم أني سأختفي لفترة كافية كي أقوم برحلتي المقدسة!

صمتت للحظة ثمَّ سألته في حذر:

- أية رحلة مقدسة تتحدث عنها؟! إلى أين ستذهب؟

رفع نظراته المنهكة صوب السماء وهمس:

- سأذهب كي أقابل الإله!

بقت تحملق فيه مذهولة غير مصدقة.

هل وصل جنونه إلى هذا الحد؟!

أسرار (سيرا)!

لم تستوعب (سيرا) ما قاله (كاز) في البداية، ظنته يسخر منها، لكن نظراته الجادة الصلبة أكدت لها أنه عنيَ كل حرف نطق به، وحينما أفاقت من دهشتها هتفت:

- وكيف ستصل إلى الإله برأيك؟

صمت مفكرًا لبرهة ثمَّ أجاب:

- سأصعد عبر السماوات حتَّى أصل إليه.

- بهذه البساطة؟؟ ستعبر البوابات المدججة بكتائب الحراس الواحدة تلو الأخرى؟ ستسافر عبر سماوات لا تدري عن دروبها شيئًا ولم يدخلها واحد من قومنا قبلك؟ ولن يلحق بك (إبليس)، ولا الملائكة، ولن تفتك بك الشهب الحارقة؟؟

- سأحاول.

- حبيبي، أنت تنتحر مثلما يفعل المغفلون من البشر.

- أول مرة تقولينها، حبيبي!

- أنت بالتأكيد فقدت عقلك، أنا أحذرك من الهلاك وأنت تكتفي بالملاحظات السخيفة.

لفهما الصمت ثانية، ثمَّ عادت تسأله:

- وإذا حدث ووصلت للإله، ولم يحرقك بنفسه وتركك تتكلم، ماذاعساك أن تقول له؟

- سأعرف منه حقيقة ما حدث، فهو أصل الحقيقة

- ولو اتضح لك أن الملك (إبليس) صادق؟؟

- سأعود كما كنت، واحد من جنوده المخلصين، وكأن شيئًا لم يكنْ.

عادت تهمس بحذر:

- ولو كان (إبليس) كاذبًا؟

- سأطلب الصفح من الإله على ما فعلته بالبشر، سأقول أني نفذت ما أُمرنا به (إبليس) وظنناه خيراً.

هتفت ساخرة:

- أي خير في أن نكون سبب تعاسة وشقاء بني (آدم)؟

- أليس هذا هو حكم الإله فيهم بعد أن خدعه (آدم) ووشى ب(إبليس)؟؟

دارت حوله وصارت في مواجهته ثمَّ قالت متحدية:

- حقًا؟ هل يمكن ل(آدم) الساذج، المخلوق لتوه، أن يشيَ ب(إبليس) العتيد ويخدع الإله؟

نظر إليها مليًا وهتف في حيرة:

- (إبليس) هو من أخبرنا بهذا.

أخذته بين جناحيها كي تخفي صوتها وهمست حانقة:

- (إبليس) كاذب ملعون، كيف لأحد أن يخدع الإله أيها الأحمق!

لم يصدق ما يسمع، لقد اِعترفت لتوها أنه على حق.

همس مذهولًا:

- لم كنت تعارضينني إذن؟ لم هجرتني؟

- حاولت بكل قوتي أن أثنيك عن أفكارك المدمرة كي أحميك من نفسك، أنا أحبك وأخاف عليك.

- وهل من الحب أن تبقيني غافلًا؟؟

- أن تكون غافلًا وتحيا معي خير من أن تعرف الحقيقة وتهلك!

- وما ذنب الغافلين من الشياطين؟ ألا يستحقون أن ننبههم.

أمسكت برأسه وهتفت:

- أفق من سذاجتك، إنهم يعلمون أن ما يقوله (إبليس) هراء وكذب ولكنهم يتظاهرون بتصديقه ليستمروا في ما هم فيه، انظر إليهم وهم مستمتعون، لا عبادات ولا مسؤوليات، حياة كلها عربدة وشرور وقوى غير محدودة، أتظنهم يريدون التخلي عن كل ذلك ويتحولون إلى جن مؤمنين، يصلون ويصومون ويسبحون؟

- ولكنهم مقهورون ويعامَلون بقسوة واحتقار

- هذا هو الثمن الذي يدفعونه في المقابل، وهم راضون بذاك الثمن البخس.

تمتم غير مصدق:

- أنا لم أكنْ هكذا، لقد آمنت بقضيتنا.

- أنت نادر الوجود!

بغته، اِلتمعت في عقله فكرة مجنونة، حقيقة ظلت مختبئة داخل حيرته ولم ينتبه لها رغم وضوحها، فهتف منتصرًا:

- لحظة، الآن فهمت!

- فهمتَ ماذا؟

أبعدها عنه قليلًا، ومَضَى يتفحص ملامحها ثمَّ قال ببطء:

- إن كنت تعلمين الحقيقة مثلي، فأنتِ بالتأكيد من بدأتِ الدعوة في قطيعك قديمًا.

- لا تكن سخيفًا!

- وعندما انفضح أمرك، ووشى بك الآخرون، توقعتِ ما سيحدث وفررت، وأبيدوا هم جميعًا

- ما هذا الذي تقول؟

- لم تدارين حقيقتك عني؟

جذبته بعيدًا عن القطيع، وراء كومة أحجار عالية، ثمَّ قالت في تحدٍ:

- أجل، أنا من جلبت الدمار على قطيعي، حاولت أن أنجو بهم ولكن ماذا حدث، حتَّى حياتهم المخجلة جردتهم منها بسبب حماقتي.

- أنتِ أردت الخير لهم.

- أفق، حياتنا ليس فيها خير، نحن شياطين!

همس بها حانيًا:

- أنتِ عرفت الحقيقة، ويجب أن تكوني فخورة بهذا.

- أنت البطل الحقيقي، أنت خاطرت بحياتك لتقرأ كتب البشر المقدسة ولم تحترق، ربما الإله يراقبك و يحميك!

- هناك أمل إذن.

- لا أمل هناك، نحن أضعف من (إبليس) وصفوته وجلاديهن يجب أن نظل رمزًا للشر كي تظل أبواب الجحيم مفتوحة.

هتف بها متحمسًا:

- خطأ، (إبليس) هو رمز الشر ولسنا نحن، هو الملعون ولسنا نحن، وأبواب الإله الرحيم مفتوحة للجميع.

- مفتوحة للجميع عدانا.

- وما أدراك؟ هل تملكين مفاتيح أبوابه؟

- نحن خُلقنا لنزج بالبشر إلى الجحيم، هذه غاية وجودنا، ألم تفهم بعد؟!

- الجحيم مخلوقة منذ الأزل سواء نحن موجودون أم لا، البشر يخطئون بمفردهم أو بمساعدتنا، الشر مثل الخير كلاهما داخل نفوسهم.

- لا أصدق ما تقول.

- نحن يمكن أن نطلب الرحمة ونرجو العفو من الإله، ما المانع أن نتوب ونتحول إلى أخيار بقية أعمارنا ؟ هناك من فعلوها قبلنا!

أمسكت به، وحدقت في وجهه، وهمست في تحد:

- حسنًا أيها التائب، إنهِ الأمر، اِستغفر الآن واطلب العفو من الإله

- كما قلت لكِ سابقًا، يجب أن أقابله لأعرف الحقيقة حتَّى تكون توبتي صافية بلا ذرة شك.

- أنت تتحجج مثلنا جميعًا لتظل كما أنت، لا تدّعي الفضيلة إذن.

قبل أن يرد عليها، علا صياح الجلادين في الجميع ليعودوا للعمل، نظرت له حانقة ثمَّ همست:

- اذهب، دعنا نعاود العمل.

- ما زلت أريد الفرار.

- اتركني الآن وانصرف.

عاينها متحسرًا، ثمَّ اِنطلق إلى قلب السماء، واختفى وسط جحافل الشياطين.

الهروب!

مر يومان كاملان على آخر حديث بين (كاز) و(سيرا).

فقط تبادلا النظرات عن بعد، نظرات تحمل العتاب والرجاء، والاشتياق والعناد، والود والغضب.

نال التعب من (كاز) مبلغه، وما أن أعلن الجلادون عن وقت الراحة، حتَّى خفق بجناحيه المرتعشين إلى أن وصل عند (سيرا)، وألقى جسده بجوارها خلف صفوف القطيع المنهك.

نظرت إليه مشفقة ثمَّ قالت في حذر:

- حسنًا أيُّها العنيد، لك ما أردت!

- هل وافقتي أن تساعديني على الفرار؟؟

تمتمت وهي تنظر بعيدًا:

- أثناء نوبة العمل القادمة سنتفحص ثغرات الحراسة في السماء وعلى سطح الكوكب، وإن كنا محظوظَين كفاية ربما نتمكن من الهروب في وقت الراحة التالي.

- هل قلتِ: نتمكن من الهروب؟ هل ستأتين معي؟

- أظننت أني سأدعك تفر مني؟

- ولكن هذا فيه خطر عليك.

- وهل تكمن الراحة والسلامة في اِبتعادي عنك؟؟ أنت خطر في قربك وفي بُعدك، وقدري هو أن أعشقك!

نظر إليها غير مصدق، ماذا عساه يفعل إن لم تكنْ تلك المجنونة في حياته؟!

***

دوريات الحراسة المكثفة تحاوط المكان بشكل محكم. لم تظفر (سيرا) بأية ثغرة يمكن من خلالها التسلل بعيدًا وراء الجبال.

ولكن مع اِنتصاف اليوم التالي حدث ما لم يكن في الحسبان!

سحقت الكوكب عاصفة جبارة لمدة نصف يوم. أقوى وأشد وأعتى عاصفة شهدها الجميع منذ سنوات بعيدة. أمطرت السماء أحماضًا تذيب الصخور، وضربت شرارات البرق العملاقة الأرض بلا هوادة، وأطاحت الزلازل وأقماع الأعاصير بالصخور والجلادين والبنائين على السواء، وسيطرت الفوضى على الجميع وسط مشاعر محمومة من الهلع والرغبة في النجاة.

عند بداية العاصفة لمحت (سيرا) فجوة عميقة قرب الجبل فأشارت ل (كاز) كي يتبعها وقفزا سويًّا في داخل الأرض، ثمَّ سحبا فوقيهما لوحًا صخريًا سميكًا، غطى أغلب الفجوة، فلم يصبهما إلَّا القليل من الهول والدمار الدائرين حولهما.

وفي وسط العواصف والأوحال القاتلة والأرض المرتجّة، بدا أن الصرح لن يقوَ على الصمود أكثر من هذا، اِلتفت (كاز) إلى (سيرا) في ظلام مخبئهما وهتف: (نحن لم نخطط لمثل هذا...!)

أبعدت (سيرا) نظراتها الحائرة عنه وثبتتها ناحية قمة الصرح التي بدت واهنة مترنحة أمام وطأة الأمطار وضربات البرق.

انتبه (كاز) لشيء بعيد فأشار إلى ما ورائهما وهتف: (أنظري هناك، إلى قلب الجبل).

في أسفل الجبل ظهر كهف كبير وبداخله نفق عميق، لم يكنْ ليستبين لولا أضواء البرق الساطعة!

تعلقت أبصارهما على بداية النفق الملتوي، وعرفا في ذات اللحظة أن هذا هو سبيل الهروب الوحيد لما خلف الجبل. تلاقت أعينهما المتوترة من جديد فصاحت (سيرا):

- فكر ثانيةً، هذه آخر فرصة لك كي تتراجع عن قرارك بالهرب.

- لن أتراجع.

- نحن لا نعرف ماذا في نهاية النفق، ولو دخلناه قد لا نعود أحياء.

- أنتِ معي، ولن أخاف شيئًا بعد الآن.

لم تجاوبه، فقط أدارت رأسها تنظر عاليًا لقمة الصرح التي بدأت في التهاوى والذوبان.

تعالت صيحات الجلادين والبنائين، واختلط الصراخ بدمدمة السماء وقرقعة الأرض، وزاد الهرج والمرج و....

- الآن!

قالتها (سيرا)، وهي تنسل من الفجوة وتنطلق بأقصى سرعتها تجاه الكهف و(كاز) يتبعها، بينما صوت إنهيار الصرح المدوّي يطغى على كل شيء.

دخلا النفق المظلم، تسابقا وهما يطيران، يرتفعان بغتة وينخفضان بغته، يختفيان لوهلة ويعاودان الظهور في بقعة أبعد، ومن خلفهما بدت أصوات العاصفة بعيدة مكتومة.

انتهى النفق كما تمنيا وعبرا إلى الجهة الأخرى من الجبل العظيم. الأرض أمامهما شاسعة مفتوحة بلا نهاية، غارقة في الصمت، وتضيؤها أشعة النجوم البعيدة.

تبادلا نظرات فرحة رغم التوتر ثمَّ واصلا فرارهما المحموم بكل ما يملكان من طاقة.

لا بد أن يبتعدا قدر الإمكان قبل أن يكتشف الجلادون غيابهما. لا بد أن يصلا إلى مخبأ آمن قبل أن يعرجا إلى الأعلى، ويبحثا عن بوابة تقذف بهما إلى أطراف السماء. ساعتها سيفكران في خطوتهما التالية، المهم الآن أن تكتمل مرحلة الفرار المسعور من ذلك الكوكب البائس!

وصلا إلى سلسلة جبال مهجورة في أقصى شمال الكوكب، واختبأا داخل كهف صغير تكسوه الثلوج الكثيفة. المكان من حولهما مقفر صامت، حيث لا شياطين ولا جن ولا ملائكة.

لقد وصلا إلى مرحلة اللا رجوع.

من تلك اللحظة حياتهما الآتية لن تمت بصلة لحياتهما المنقضية.

من الآن يُسطر تاريخ جديد لبني (إبليس)!

***

أوامره كانت واضحة. أرهقوا البنائين والجلادين في أعمال التشييد والبناء، قللوا من فترات راحتهم حتَّى تخور قواهم وتنهار مقاومتهم ويرشدوا عن الخائن بينهم.

كان متأكدًا من الخيانة، وموقنًا أن أحد الشياطين قد اِكتشف شيئًا مما جاهد في إخفائه لآلاف آلاف السنين.

إحساسه الملائكي الخارق الذي لم يزل يلازمه، وما نُقل اليه من عيونه على الأرض، ينبئان بأمر قد يغير من شكل الكون ويقلب الموازين!

أمر جلل قد ينقذ رقاب نسل (آدم) من الجحيم. أمر كارثيّ قد يدفع الآلاف من بنيه وأتباعه إلى التمرد عليه، والتخلي عنه، والانضمام إلى قبائل الجن المؤمنين.

إذا ما حدث هذا، ستكون فضيحة مخزية تدفعه للإنزواء بقية عمره، حيث ينتظر نهايته المفزعة خاسرًا وحيدًا خالى الوفاض.

لا بد أن يسيطر على هذا الأمر في بدايته مهما كان الثمن، فهذه المرة تختلف عن المرات السابقة. الأمر جد خطير!

لكن من هو الخائن؟

بالتأكيد واحد من البنائين، ولكنهم خانعين ومنهكين ودومًا مراقبين بإحكام. هل هو أحد الجلادين؟ ولكنهم حمقى وأغبياء. أيكون الخائن أحد شياطين الصفوة؟ ولكنه يشتري ولاءهم بالنفوذ والوعود.

من تراه أفلت من تلك الدائرة المُحكمة التى ظل مسيطرًا عليها منذ قديم الأزل؟ من يملك العلم، والقوة، والجرأة لينبش في أسرار الماضي؟

كان (إبليس) واقفًا على الجزء المظلم من سطح القمر، يفكر وهو ينظر واجمًا تجاه حشود البشر أسفل منه. يستمع إلى ضوضائهم ويشاهد صراعاتهم. يتعجب لقسوتهم، وتكبرهم، وجحودهم برغم ما هم فيه من نعم وهبات.

تمنى، داخل أغوار نفسه لو اِستبدل مكانه بأفقر، وأضعف، وأحقر واحد منهم.

- حمقى!!

قالها وهو يشيح بنظره ويقفز إلى قلب السماء، ليواصل بحثه المسعور عن الخائن.

***

- والآن أين سنذهب؟

قالها (كاز) وهو يتلفت حوله في كل اتجاه، فقالت (سيرا):

- نبقى هنا لبعض الوقت حتَّى يهدأ كل شيء.

- لن يهدأ أي شيء حتَّى يظفروا بنا ولو بعد آلاف السنين!

قالت (سيرا) ساخرة:

- أنا سعيدة أنك أدركت ما الذي اِقحمتنا فيه.

- لا داعي لتوبيخي، ليس بهذه السرعة.

صمتا لبعض الوقت، ثمَّ قالت:

- دعنا نذهب إلى مكان بعيد وآمن لنختبئ فيه، ونحدد بعدها وجهتنا التالية.

اِلتفت إليها مندهشًا وهمس:

- وأين ذلك المكان البعيد الآمن يا ترى؟

قالت في جمود وهي تشير إلى قبة السماء الشاسعة:

- هناك، بالقرب من النجم الأسود الأكبر.

- هل جننت؟ ذلك النجم يبتلع كل من يقترب منه.

- أنا أعرف كوكبًا آمنًا هناك، لقد ذهبت إليه قبلًا.

- متى؟؟

اِلتفتت إليه وحدقت في وجهه، ثمَّ همست:

- أثناء هروبي السابق، هناك يعيش واحد من المنبوذين القدامى.

هتف متحمسًا:

- المنبوذون؟؟ هل تعرفينهم؟

- أجل، اِستضافني أحدهم عامًا كاملًا.

- ولم تركت ملاذًا آمنا كهذا؟

- لم تستهوني حياة الهاربين.

- وماذا سنفعل هناك؟

- سنستريح، ونفكر، وتسمع منه الكثير من الحكايات، ربما لا تحتاج بعدها للسفر عبر السماوات لتقابل الإله.

حدق في وجهها مأخوذًا ثمَّ همس:

- كم أنت مملوءة بالأسرار!!

- اِتبعنى في صمت إذن، نحن لا نملك كثيراً من الوقت.

المنبوذون!

كرة سوداء هائلة رابضة في قلب السماء. لا هي صخرية، ولا مائية، ولا غازية، إنما هي خليط فريد يجمع كل تلك الخواص. كتلة جبارة تمارس سطوتها اللا محدودة على كل من يقترب منها، فتجذبه، وتسحقه، وتهضمه، وتمتصه ليذوب في مادتها التي لا تنضب ولا تشبع، حتَّى حبيبات الضوء ووحدات الزمن لم تسلم من قبضتها.

إنه النجم الأسود الأكبر!

في غابر الأزمنة، كان النجم مرجلًا عظيمًا عاصفًا، يوزع ضياءه ووهجه ومادته بسخاء على الجميع. لكن جذوته بردت وخبت مع مرور السنين، حتَّى استكانت وانطفأت بلا رجعة، وبدا وقتها وكأن المارد العملاق قد اِنتهى، لكنه بالواقع لم يمت وعاد من جديد، عاد جبارًا قويًّا لينتقم من الجميع ويسترجع كل ما وهبه للحياة قديمًا!

يوم كامل قضياه (كاز) و(سيرا) يتنقلان من بوابة إلى أخرى، ومن درب إلى درب، حتَّى بلغا قلب السماء، حيث يقبع النجم الأسود الأكبر، وكل الموجودات تدور حول عرينه ببطء وهي منجذبة إليه وقد يئست من الفكاك والنجاة.

جلس كلاهما فوق سطح كوكب منهار، تآكل معظمه، وهو يدور قريبًا من الكتلة السوداء المخيفة، هتف (كاز) في إنهاك:

- ألم نصل لغايتنا بعد؟ لقد اِقتربنا كثيراً من ذلك الوحش، أشعر به يجذبني إليه!

تلفتت (سيرا) فوق رأسها ثمَّ أشارت لكوكب قريب، نصف معتم، وتغطيه جبال نحاسية صفراء، وقالت:

- ها هو ذا، إنه المكان الذي نقصده

- هيا بنا إذن

- اصبر، لا بد أن نستأذن مضيفنا أولًا وإلَّا هلكنا، إنه عجوز ولكنه قوي!

- ومن هو هذا المضيف الكريم؟

- إنه (جورام)، جني قديم، كان مقربًا من (إبليس)، ثمَّ اِنقلب عليه والتحق بالمنبوذين وهرب إلى هنا، لا يستطيع مئة من الجلادين العمالقة هزيمته، حتَّى (إبليس) نفسه يخشى ألاعيبه وقوته.

- رائع، لقد فهمت، كفاك غزلًا في جنّيكِ الخارق.

ضحكت وصاحت:

- مرحى!! أصبحت تغار أيضًا مثل البشر؟؟؟ حسنًا أيُّها العاشق، هيا بنا.

أحاطت جسده بجناحيها والتصقت به حتَّى صارا كتلة واحدة، ثمَّ اِنطلقا بقوة إلى قلب السماء وابتعدا رويدًا عن مدار الكوكب البائس المتآكل، وانسابا بخفة وسرعة تجاه غايتهما.

***

وصل (كاز) ورفيقته إلى مشارف الكوكب المنشود. بدت سماؤه صافية بلا غيوم أو زوابع، وسطحه صامت ساكن، وكأن المسكين ينتظر فناءه المحتوم في استسلام.

هبطا في سهل منبسط فسيح. لم يكن هناك أثر لمخلوق فصاحت (سيرا) بلهجة الجن:

- (جورام)، أيُّها الجني الكريم، أنا (سيرا) ضيفتك القديمة ومعي (كاز) رفيقي، نحن ننشد حمايتك.

ترددت أصداء صيحاتها في أركان المكان فهتف (كاز) مفزوعًا:

- هل جننت؟؟ اِخفضي صوتك، سيسمعنا الجلادون.

- اطمئن، لا جلادون هنا، فقط المنبوذون هم من يسيطرون على ذلك الكوكب وما حوله من الكواكب، قلب السماء مِلك للمنبوذين يا صغيري.

مر الوقت بطيئًا، و(سيرا) تكرر نداءاتها في كل إتجاه، حتَّى لاحت لهما في الأفق كرة من النور الأزرق الرائق، حامت ببطء حولهما في السماء قبل أن تحط أمامهما في سكون، ثمَّ تحولت الكرة المضيئة إلى (جورام)!

جسد نوراني ممشوق بلون أزرق صاف. قامته تعادل ضعف قامة (كاز) و(سيرا)، وله جناحان ضخمان وعريضان. ملامحه ساحرة مغتبطة. اِبتسم ل(سيرا) وبقى محدقًا فيها لوقت طويل. بدا وكأنه لم يلحظ وجود (كاز) من الأساس!

"هل هذا هو العجوز؟" همس (كاز) ل(سيرا) في عقلها، فلكزته ليصمت ثمَّ هتفت:

- (جورام) العزيز، كيف حالك؟، لقد اِفتقدتك.

واصل (جورام) الأزرق ابتسامته وهتف:

- كاذبة! لو اِفتقدتني لأتيتي لرؤيتي كما وعدتني سابقًا.

أسرعت (سيرا) تقبض على جناح (كاز) وقالت متحمسة:

- أقدم لك (كاز)، خليلي!

تغير لون (جورام) بغتة إلى لون أصفر فاقع، وعاين (كاز) بنظرات متفحصة، ثمَّ قال بفتورٍ:

- مرحبًا!

هتفت (سيرا) لتغير الموضوع:

- لقد فررنا أنا و(كاز) ونريد حمايتك، ومشورتك بالطبع.

- ولم فررتما؟

- سأدع (كاز) يحكي لك كل شيء، إنها قصة غريبة ومشوقة.

- سأسمع كل شيء ولكن بعد أن تنالا قسطًا من الراحة.

***

داخل مغارة واسعة جلس ثلاثتهم. قص (كاز) كل شيء على (جورام) من البداية وحتَّى لحظة لقائهم، بينما ظلت (سيرا) منصتة ولم تعلق بكلمة واحدة.

هتف (جورام) بعد أن اِستمع للقصة كاملة:

- أنت قطعت شوطًا طويلًا فلا تتوقف لأي سبب، ستكون أنت شعلة الضياء التي تبدد كل الظلام، ولن يتحجج أحد بعدك بأنه لم يكن يعلم!

- هل اقتنعت بما قلت؟؟

- انا أعرف مسبقًا كثيراً مما قصصته، (إبليس) أكثر مخلوقات الإله حماقة وغرورًا، إنه يفرض عليكم أكاذيبًا اختلقها عقله المريض، هو أضعف كثيراً مما يحاول أن يصور نفسه وسلطانه الهش آخذ في التآكل والضياع.

- ولم تركته؟

- لأني سئمت الكذب والخداع، إنه يجر كل من معه إلى الجحيم.

- وهل هروبك هو الحل؟

- لم أهرب، لقد اعتزلت أولئك الفاسقين، كان من المستحيل تغييرهم ولم أستطعْ الحياة وسطهم، لقد تبعت (إبليس) قديمًا حينما لعنه الرب وأسقطه من السماء، لكني تراجعت بعدما أدركت أنني لست طرفًا في التحدي الأخرق الذي أبرمه على نفسه أمام الإله.

- ولم لم تلتحق بقبائل الجن المؤمنين؟

أطرق (جورام) مفكرًا، وجسده يتماوج بين اللونين الأزرق والأرجواني، ثمَّ قال:

- لا أحب أن أكون تابعًا لأحد، أفضل الترحال بمفردي!

- هل، هل تؤمن بالإله؟

صمت (جورام) مشدوهًا قبل أن يشير إلى السماء ويهتف:

- هل أنت أحمق؟ طبعًا أنا أؤمن بالإله.

- إذن أنت تعرف كيف أسافر إليه؟

أخذ جسد (جورام) في التشكل بألوان عديدة، وقد باغته السؤال ثمَّ همس:

- لقد فقدت عقلك بالتأكيد!هذه مغامرة خطيرة، لا أحد يصعد إلى هناك إلا بإذنه.

- فقط أخبرني، كيف نتسلل إلى السماء التالية واترك الباقي علينا.

- ولم كل هذا العناء، يكفيك ما عرفت من الحقيقة.

- أريد أن أسمعها منه.

- كما تشاء، هناك أسطورة تتحدث عن بوابة قديمة ومطمورة تقع في أطراف السماء، عند النجمين الملتصقين، هل تعرفهما؟!

هتف (كاز):

- بالطبع، طالما نهانا الجلادون عن الاقتراب من هذين النجمين أو حتَّى النظر إليهما.

- تقول الأسطورة أن هذه البوابة تقود إلى السماء الثانية، ربما حان الوقت للذهاب إلى هناك واكتشاف الأمر بنفسك.

- ألم تجرب الولوج منها قبلًا؟

اِبتسم (جورام) وتحول لوهلة إلى اللون الأبيض ثمَّ قال:

- بحثت عنها مرات عديدة ولم أجدها، فتلك البوابة العجيبة تظهر فقط لمن تختاره.

ثمَّ أردف محذرًا:

- ولكن إن فشلت في الوصول إلى الإله، ولم تهلك، لا تعد إلى هنا ثانية!!

هتف (كاز) مذهولًا:

- ولم؟

- لأني وقتها لن أستطيع حمايتك، إضافة إلى أني لا أتحمل وجودك معي، أنت غريمي، أنت من فزت ب (سيرا) الجميلة!

- ماذا؟؟

- اِنتهى الكلام، لقد أرهقتني بالحديث أيُّها الصغير، ابق كما تشاء أنت ورفيقتك، ولكن عندما ترحلا لا تعودا ثانيةً، كلاكما غير مرحب به بعد الآن.

بعدها نهض (جورام) ومشى إلى خارج المغارة، وفي لحظة توهج باللون الأحمر، ثمَّ قفز إلى قلب السماء واختفى!

حملق (كاز) في وجه (سيرا)، التي بقيت على صمتها وهي تنظر في الأرض، ثمَّ قال حانقًا:

- ما الذي يجري هنا؟ ماذا حدث بينكما قديمًا؟

- لا شيء، لقد أنقذني من الموت وداواني في مخبئه هنا، وبعدها أرادني أن أكون خليلته فرفضت وذهبت إلى قطيعكم، وأنت تعرف كل شيء بعد ذلك.

- لكنه لا يزال مغرم بك!

- إنه عجوز مخرف، ويشعر بالوحدة، لا تشغل بالك به.

هتف مغتاظًا:

- هل هناك المزيد من الأسرار تودين البوح بها؟

نهضت واقتربت منه، ثمَّ أحاطته بجناحيها، وهمست في دلال:

- نعم، هناك سر جديد، أنا أحبك أكثر عن ذي قبل!

مطاردة!

بعد أن أخبرهما (جورام) عن خريطة الدروب المهجورة الآمنة التي تقود إلى النجمين الملتصقين، وفي الوقت المحدد، انطلقت (سيرا) مع (كاز) في سرعة وحذر.

عبرا البوابات الخالية من الحراسة، الواحدة تلو الأخرى، حتَّى لاح لهما نجم وحيد محاطٌ بسحابة عملاقة من الأتربة والدخان. نجم براق متفجرلا يزال في طور التكوين والتشكل. من المؤكد أنه لا أحد هناك.

قفزا إلى مدار النجم فلفحتهما حرارته العاتية، وملأت سمعيهما اِنفجاراته الصاخبة. اِختفيا داخل السحابة الحارة، المشبعة بالمعادن والطاقة والصخور. شعرا بالقوة والدفء يملآن جسديهما المتعبين من الفرار الطويل المنهك. الخطة تسير على ما يرام.

نظر إليها، وقد اِكتسى جسدها بلون اللهيب المتراقص، ثمَّ صاح:

- هيا بنا، فما زالت الطريق طويلة.

لوحت له وصاحت:

- حسن يا صغيري، إلى النجمين.

مدت جناحيها عن آخرهما ثمَّ اِبتسمت في غبطة وقد ملأت وجهها مشاعرعشق فيّاضة، ضحك وشعر أنه أوفر بني (إبليس) حظًا.

وفي اللحظة التالية.

ظهر (خوماش) من خلفها!

خرج خادم (إبليس) القبيح من قلب سحابة الأتربة والصخور الكثيفة، وفي نظراته كل الشر والحقد والانتقام.

كيف عرف مكانهما؟؟ هل أراد (جورام) الغيور الانتقام فأبلغ عن مكانهما؟ أم ربما (أشتون) شك فيه ووشي به؟؟ أم أن (إبليس) يعلم كل شيء من البداية؟؟ لا يهم السبب الآن. المهم أن يتعامل بحذر مع هذا الموقف الدقيق دون أن يثير هلع (سيرا). أشار لها (كاز) ألا تتحرك وصاح مستعطفًا:

- (خوماش) العزيز، أرجوك أعطني الفرصة كي أشرح لك ما حدث.

صرخ (خوماش) في غضب هادر ورفع حربته الطويلة:

- أتريدان الفرار من الملك (إبليس) أيها الخائنان؟

- لا، لا، أنت لا تفهم، نحن كنا.

اِنتبهت (سيرا) إلى الخطر المحدق بها، وقبل أن تلتفت سدد (خوماش) حربته نحوها فاخترقت ظهرها ونفذت عبر جسدها. تسمرت مكانها وملأ الذعر نظراتها وكأنها تصيح ب(كاز): "اهرب، انج بنفسك".

ثمَّ لانت قسماتها وابتسمت في حنان، وقد أدركت أنها لحظاتها الأخيرة معه في هذا العالم.

تلاقت نظراتهما وأيقنا أنها النهاية. لقد صدر الحكم ولا مجال للتراجع عنه. أدركا أنه وداعهما الأخير حيث يبقى اللقاء ثانيةً أملًا بعيدًا غير مضمون.

ود لو اِلتقفها في أحضانه، وودت لو أراحت رأسها على كتفه.

كانت ممتنة لأن آخر ما تراه عيناها هو وجهه.

وفي صمت، اِنفجرت (سيرا) لآلاف الشظايا الحمراء الصغيرة، واختفت من الوجود!

....

هكذا بكل بساطة هلكت حبيبته وفاز بها ملاك الموت. ذهبت من صدّقته ووقفت إلى جواره وروته برحيق عشقها. رحلت من أنقذته من الموت مرات عديدة.

ماتت (سيرا)!

كل شيء حدث بسرعة خاطفة. لم يكنْ (كاز) قد استفاق من صدمته، حينما لمح (خوماش) يسدد الحربة نحوه، لم يدر ماذا عساه أن يفعل، لكنه وجد نفسه يختفي من مكانه فأخطأته الحربة.

هل ماتت (سيرا) وتركته وحيدًا؟ لا بد أنها تغيظه كعادتها، وستظهر ضاحكة من قلب العدم!

قفز تجاه (خوماش)، وبكل غضبه وحنقه وحزنه تعلق في رقبته، وخمش وجهه الدميم بأطرافه الحادة. عوى (خوماش) من الألم وأفلت حربته، فاختطفها (كاز) بسرعة وأغمدها في صدر الجلاد القبيح بكل ما يملك من قوة.

اِشتعل (خوماش)، وشعر (كاز) بالوهج يكاد يحرقه، فارتد للخلف بعيدًا، وشاهد خادم (إبليس) يصرخ ويهوي وهو يدور حول نفسه، ثمَّ إلتقمته أذرع اللهب الأصفر الجائع وابتلعته في لحظات.

وقف (كاز) يحدق مذهولًا في الفضاء الخالي من حوله، صرخ عاليًا:

- (سيرا).......... (سيراااا)!!

بقى عالقًا يدور في اِستسلام حول النجم الأصفر المحتقن بالحمم والانفجارات،

يسترجع في عقله آخر اِبتسامة أهدتها له حبيبته قبل أن تفنى، هل هناك جدوى مِمَّا يفعله الآن؟

أغمض عينيه على صورتها. ماذا لو ترك جسده يهوى في صمت داخل آتون اللهب المتربص؟ وقتها سيرتاح من عذاباته كلها. لا مزيد من الخوف والشك والحسرة والفرار والألم. لا مزيد من (سيرا).

لا شيء سيرجعها له، فليلحق بها إذن!

ولكن أيفيدها هذا في شيء؟؟ بم ينفعها اِستسلامه واندحاره؟ هل يكون موتها هكذا بلا فائدة؟؟

لم تكن (سيرا) شيطانة عادية، لقد كانت رمزًا وسندًا وأملًا وحبيبة.

فتح عينيه وهو يشعر بروحها تطوف من حوله.

لا بد أن يكرم ذكراها ويثأر لموتها، ولن يكتمل اِنتقامه إلا حينما يرى (إبليس) اللعين مهزومًا ذليلًا. أجل، هذا ما سيشفي غليله ويسعد (سيرا) أينما كانت.

لا بد أن يقاتل ويكمل المسيرة لأجل خاطرها، فهي من سبقته في البحث عن الحقيقة.

اِستجمع تركيزه وصلابته من جديد. لا وقت للأحزان. من المؤكد أن (خوماش) وراءه آخرون سيصلون في أية لحظة.

إنه لم يعد خائنًا فارّا فحسب، بل أنه قاتل كذلك.

نظر حوله واسترجع خريطة الدروب مرة أخرى في عقله، ثمَّ اِنطلق يكمل رحلته وحيدًا إلى النجمين الملتصقين.

سماءٌ أخرى!

وسط حلقة من كبار الجلادين وشياطين الصفوة وقف (إبليس) شامخًا، وأمامه ركع (أشتون) مرتعدًا هائبًا، أخذ (إبليس) يراقبه ويستجلي روحه وأفكاره.

لقد اِستدعاه ذلك البناء الحقير وأخبره أن (كاز) هو الخائن وأنه فر مع رفيقته. عرف أنه يقول الحقيقة، ولكن في نهاية الأمر ما زال (كاز) حرًّا طليقًا، و(خوماش) لم يرد إليه خبر منذ أن أطلقه وراءهما.

يا لسخرية القدر! أيكون (كاز)، الذي توسم فيه الخير، هو من يطعنه في ظهره؟ لقد ربى في كنفه (موسى) آخر!

- انهض

قالها (إبليس) آمرًا فوقف (أشتون) وهو لا يزال على حاله من الارتعاد والهلع، ثمَّ أردف:

- أين هما الآن؟

- لا أدري يا مولاي، لقد راقبتهما عن كثب ورأيتهما يفران إلى جوف الجبل أثناء العاصفة، حاولت اللحاق بهما لكنهما سبقاني وفرا، فاستعيدتك كما أمرت.

صرخ (إبليس) غاضبًا:

- لقد تأخرت في اِستدعائي يا غبي.

- رحماك يا مولاي، أردت أن أتيقن من شكوكي قبل أن أستدعيك.

لم يعقب (إبليس)، لو قتله الآن لن يتكلم بعدها أي شيطان آخر، سيخافون من العقاب، وهو في أمس الحاجة لأية معلومة تقوده إلى (كاز) الخائن.

- حسن، سأبقى على حياتك البائسة بشرط وحيد.

- أشكرك يا مولاي أشكرك.

- ستذهب للبحث عنه وتأتيني بأخباره، انزل الأرض أو جب السماوات أو اِقتحم الجحيم، هذا شأنك، لكن لو تأخرت ستكون نهايتك، هذه آخر فرصة لك.

أومأ (أشتون) في صمت علامة الموافقة، ثمَّ تراجع مطأطأً رأسه في خنوع وانطلق من فوره وغاب في السماء!

***

تابع (كاز) رحلته إلى النجمين الملتصقين وهو يسابق الزمن ويجوز المسافات. وأخيراً رآهما هناك. نجمان ضخمان وباردان كالأموات. كانا قريبين للغاية من بعضهما حتَّى يظن من يراهماعن بعد أنهما ملتصقان.

وصل إلى مداريهما الواسعين، ثمَّ عبر في ما بينهما بحذر. كرتان مهولتان تشعان ضياءً خافتًا، وفوق سطحيهما بحار من حمم بيضاء تنبض في وهن. جال بنظره في كل مكان بحثًا عن البوابة. ماذا لو لم يجدها، ماذا لو لم تختاره؟!

دار مرتين حول النجمين ببطء، وفي الثالثة اِلتمع أمامه وهج من العدم، ثمَّ تشكلت بوابة ضخمة لم يرى مثلها قبلًا، حوافها ذهبية تنبض في خفوت متقطع وكأنها تدعوه للمرور!

هل هذه هي البوابة المنشودة؟ هل تحمله إلى السماء التالية، أم تقذف به

إلى جوف الجحيم؟ لا بد أن يخاطر، فليس أمامه حل آخر. حزم أمره بسرعة، وضرب أجنحته في صمت، ثمَّ ترك جسده الممشوق ينزلق خلالها في نعومة.

مر من البوابة في سلاسة ويسر، وفي لحظات وجد نفسه فوق كوكب صغير، يدور في سماء جديدة على عينيه، سماء بديعة ومختلفة عن كل ما رآه سابقًا، سماء أرجوانية زاهية، فيها عناقيد متشابكة من شموس خضراء وزرقاء وبيضاء لا حصر لها، وأجرام ضخمة بكل الألوان.

رأى جموع الملائكة المسبحين تطوف في كل مكان وهم يتلون آيات الشكر وترانيم التوحيد للإله العظيم. صوتهم رخيم لا ينقطع، وألوانهم اللؤلؤية حانية دافئة.

كل ما حوله يفيض سكينة، وحبًا، ورحمةً، وجمالًا.

تمنى لو أن (سيرا) معه لتشاهد كل هذا. لكن لا وقت للانبهار أو لاسترجاع الذكريات، فما زال أمامه الكثير كي يصل إلى الإله.

عرف أن بقاءه مكشوفٌ هكذا فوق سطح الكوكب فيه خطر داهم، فدار بنظره من حوله، ثمَّ أسرع يختبئ داخل كومة من الصخور الضخمة بالقرب منه ريثما يفكر في خطوته التالية. بعدها بلحظات معدودة، هبطت كتيبة من الملائكة الحراس الأشداء كي تمشط المكان.

يبدو أنهم أحسوا بوجوده!

***

حملق (كاز)، من بين شقوق الصخور، يراقب كتيبة الحراس.

كانوا ضخامًا، لونهم أبيض بلون القمر، مدججين بحراب لامعة ذات رؤوس مضيئة. أجنحتهم مشهرة في تحفز واستعداد. أخذوا يجوبون من حوله بخطوات قوية وأبصار ثاقبة.عرف أنهم حتمًا سيعثرون عليه وساعتها ستكون نهايته.

ما الذي يتوقعه شيطان مثله، عندما تجده الملائكة وقد تعدى الحدود المسموحة لأمثاله، وتسرب إلى مكان لم يكنْ من المفروض أن يوجد فيه؟!

كوّر جسده المحرشف أكثر بين الصخور وبقى بلا حراك. أنصت لخطواتهم البطيئة المتأنية وهي تقترب من مخبئه أكثر وأكثر.

لا مجال للفرار.

ولكن بعد لحظات من الترقب المشحون، سمعهم يهمهمون ببعض العبارات ثمَّ توقف أحدهم، ربما هو قائدهم، ودق الأرض بحربته، فأحجم الجميع عن الحركة والحديث.

اِنكمش أكثر وتصلب في مكانه، يجب ألا يظفروا به!

ثمَّ مرت لحظات ثقيلة، قبل أن يصيح قائد الحرس بما معناه أنه لا شيء في الجوار، ثمَّ اِنطلقوا جميعهم كحزمة ضوء واحدة، سرعان ما غابت في قلب السماء الملونة.

ظل (كاز) داخل مكمنه بلا حراك، لقد نفذ بأعجوبة.

اِختلس النظر إلى كوكب وردي ضخم، فوق رأسه، يسبح في بحار النور الملونة التى تضج بها السماء، ربما يجد بوابات على سطح ذلك الجرم المهيب، هو لا يملك حلولًا أخرى غير البحث والمحاولة ومن ثمَّ النجاح أو الهلاك.

تلفت حوله ولم يبصر أحدًا، فخرج من مخبئه وزحف خطوتين إلى العراء ثمَّ

نهض في حذر. سيقفز الآن إلى قلب الكوكب الوردي، سيفعلها بسرعة خاطفة ولن يلحظه أحد.

لكنه كان مخطئًا.

فقد ظهر بغتة أمامه ملاك حارس.

ملاك مهيب، يشع جسده بضياء ساطع يعمي الأبصار. بدا وكأنه قائد الكتيبة التي اِنصرفت قبل قليل. لقد كان اِنصرافهم حيلة كي يكشف (كاز) عن مكانه، وقد فعل!

***

أسقط في يدي (كاز)، هذه المرة لا أمل في النجاة.

الملاك القائد يواجهه وهو يحمل سلاحه المتوهج. مد الملاك الحربة في وجه (كاز)، ثمَّ رفعها كي يسددها في صدره وهو يجدحه بنظرات صارمة محذرة.

خرّ (كاز) ركعًا عند قدمي الملاك، وصرخ متوسلًا:

- الرحمة أيُّها الملاك الطاهر، إرأف بحال أسيرك المَهين!

توقف الملاك مشدوهًا عن تسديد حربته عندما سمع (كاز) يتحدث بمثل تلك المفردات، ثمَّ صرخ:

- اِنهض أيُّها الشقي، لا ركوع إلا لله.

وقف (كاز) مرتبكًا، وهتف:

- اسمعني أولًا قبل أن تقتلني أيُّها الكائن البديع.

قال الملاك بصرامة دون أن يرخي حربته:

- أتظن أن حديثك المعسول هذا سيطيل عمرك؟ أنت شيطان رجيم.

- لا أيُّها الملاك الجميل، بل أنا شيطان بائس.

- كيف جرؤت على تدنيس هذه السماء؟ وكيف وصلت إليها أصلًا؟؟ إنه أمر مستحيل.

- يقول الله في قرآنه أننا ننفذ من خلال أقطار السماوات، ولكن بأوامره وسلطانه ومشيئته، وربما كانت هذه إرادته!

بُهت الملاك للحظة، وخفّ سطوعه للحظات، ثمَّ قال في حيرة:

- وكيف عرفت كلام الله أيُّها السقيم؟

- لقد قرأته وحفظته، وأحفظ كذلك ما وجدته من الإنجيل والتوراة.

- ماذا؟ هل تكذب أم تخرف أم تماطل؟

- أبدًا، إنما أقول الحق.

- وكيف نفذت إلى هنا أيها المتحذلق؟

- وجدت بوابة مخفية بين نجمين ضخمين، في أطراف السماء الدنيا، بوابة تختار من يعبرها.

- أول مرة أسمع عن بوابة كتلك، وماذا كنت تفعل هناك؟

- كنت أفر من (إبليس) وجنوده.

صمت الملاك القائد لوهلة ثمَّ تبسّم، فازدادت أضواؤه سطوعًا، حتَّى أن (كاز) غطى جسده بجناحيه مخافة أن يحترق! بعد وهلة خبا سطوع الملاك، وعاد إلى حالته الهادئة الأولى وقال:

- أنت (كاز) إذن؟

- ماذا؟ هل تعرفني أيُّها الملاك الجليل؟

- أخبارك تملأ السماء، شيطان فر مع خليلته، الملعون (إبليس) وجنوده يبحثون عنك كالمسعورين، لقد أوكل إلى أعتى فرقه الخاصة مهمة القبض عليك حيًّا.

هز (كاز) رأسه في أسى وهتف:

- لا يهم، لقد قتلوا خليلتي ويبدو أنني سألحق بها الآن، وأكفيهم مشقة البحث عني وتعذيبي!

- جاوبني بلا مراوغة، ماذا كنت ستفعل بعد أن جئت إلى هنا؟

- كنت أنوي أن أكمل رحلتي.

- إلى أين؟؟

- .... إلى الله!

هتف الملاك مذهولًا:

- هل جننت؟؟ أتذهب أنت إلى الخالق العظيم أيُّها النجس؟ لقد تسامحت معك كثيراً.

رفع الملاك حربته مجددًا، ثمَّ أغمدها في صدر (كاز) الذي صرخ مستغيثًا وهو يهوى على الأرض. همس (كاز) في وهن وهو يئن:

- أردت أن أتيقن من الحقيقة!

توقفت الملاك، ثمَّ سحب حربته، وانحنى فوقه وهمس بجدية:

- عن أية حقيقة تتكلم أيُّها الشيطان؟

- حقيقة ما حدث مع (إبليس)، كتب البشر تقول أنه تكبر وعصى الإله لذا طُرد من الجنة وأصبح ملعونًا، لكنه أخبرنا رواية أخرى، أنكم اِنقلبتم عليه وتآمرتم مع (آدم) ووشيتم به عند الإله، أخبرنا أن (آدم) بعدها عصى الإله فطرده من الجنة وغضب عليه وعلى ذريته كلهم، وأن الإله سوف يسكننا الجنة إذا أدخلنا البشر إلى الجحيم.

- الملعون الكاذب.

- وقال، أنكم ألفتوا كتب البشر المقدسة، وأنه لا أنبياء ولا معجزات، كلها أكاذيب.

- أي تخريف هذا؟ إنه يقول على الله شططا، كيف تصدقونه؟

- لقد زيف التاريخ الحقيقي وأخفاه عنا.

- أنت تعرف الحقيقة إذن، فماذا كنت تريد من الله؟

- أردت أن أسأله، أردت يقينًا لا يخالطه شك أو اِلتباس.

وقف الملاك ثانية، وتلفت حوله مترددًا، ثمَّ رفع رأسه إلى الأعلى في خشوع. الحيرة تملؤه وأضواؤه الصافية تتماوج نابضةً ما بين سطوع وخفوت داخل جسده الضخم المهيب.

لقد سمع عن شيطان فر من (إبليس) وجنوده، ولكنه ظن أنه مجرد عابث يحب المغامرة، أو ربما كسول مل من كثرة الأعمال الشاقة المفروضة عليه. لم يتخيل أن يجد شيطانًا يبحث عن الإيمان بكل هذه القوة وتلك المثابرة. لم يكن يتصور أن هناك شيطانًا يود مقابلة الله!

جلس الملاك جوار(كاز)، وأخذ رأسه بين يديه، وهمس:

- هل أنت بخير؟

- أنا بخير، جرح صغير ولكنه سيشفى.

- الشياطين تحترق وتتناثر حينما تلمسها حرابنا، وأنت تخبرني أنك بخير بعد أن اِنغرس كامل النصل في جسدك؟!

- وماذا يعني هذا؟

- أنا لا أدري، العلم عند علّام الغيوب، ولكن ربما تتحول من شيطان إلى شيء آخر لا أعلم كنهه!

- حقًا تقول يا سيدي؟

تبسّم الملاك القائد، وساعد (كاز) على النهوض، وهتف:

- أنت فهمت كلمات الله المقدسة، ثمَّ وجدت بوابة عجيبة ألقت بك إلى هنا، ثمَّ حاولتُ أنا قتلك ولكنك لم تمت، كيف تفسر كل هذا أيُّها الباحث عن الحقيقة؟

- أتساعدني إذن كي أصل إلى الإله؟؟

- لا تحتاج لهذا، فالله يسمعنا ويرانا الآن، إنه بكل مكان وزمان، هو معنا وحولنا!

أسرع (كاز) يقول مترجيًا:

- أريد الذهاب إليه، أريد أن أسمع منه ويسمع مني.

- لا أستطيع، فقدراتي محدودة، ثمَّ ماذا ستفعل مع بقية الملائكة؟!

- سيحذون حذوك إن شاهدوني معك.

- وربما يقتلونني معك، وإن لم يفعلوا ستهلكك الشهب!!

- وما العمل؟

- ما قرأته صحيح، هذه هي الحقيقة، (إبليس) لم يظلمه أحد، هو الذي تكبّر على الله فغضب عليه ولعنه شيطانًا، و(آدم) عليه السلام أخطأ بعد أن غواه (إبليس، لكنه تاب وأناب فعفى الله عنه، هناك أنبياء ومعجزات وكتب مقدسة ومؤمنون وعاصون، أبواب التوبة مفتوحة ورحمة الإله تسع الجميع.

- أنت تقول الصدق أيُّها الملاك الطاهر، أليس كذلك؟

اِبتسم الملاك وهتف:

- لم عساني أكذب عليك وأنت الطرف الأضعف هنا، ماذا سأجني لو خدعتك؟

ثمَّ تلفت حوله وقال في صرامة:

- اسمع، لقد جاءني الأمر أن أتركك تعيش، فقط ارجع من حيث أتيت، وأنا متأكد أن الله سيساعدك بطريقته الحكيمة.

- وكيف أصل إليه إذن؟

- إنزل إلى الأرض وافعل مثلما يفعل البشر، إنه معهم ليل نهار، يسمع منهم ويجيبهم. الوصول إلى الله لا يستلزم السفر عبر السماوات، الطريق إلى الله أيسر كثيراً مما كنت تنتوي فعله!

- أنزل إلى الأرض؟؟

- أجل، ستجد الله هناك، افعل الخير وساعد البشر على النجاة مما هم فيه ستجد الله إلى جوارك، اسأله حاجتك وهو سيُسمعك صوته بالطريقة التي يختارها هو، ومن يدري؟!

نظر (كاز) إلى الملاك، واقترب منه بحذر، ثمَّ لمس وجهه المنير. شعر بالوهج يملأه، وبالضياء الدافئ يسري في جسده المنهك. ذاك الضياء الصافي لا يصدر عن كائن يكذب أو به ذرة من شر... ثمَّ ابتعد وهمس:

- أشكرك أيُّها الملاك الجميل.

- في أمان الله يا صديقي!!

اِلتفت (كاز) إلى البوابة الذهبية التي أتى منها، بعد أن أطلت عليه مجددًا من العدم، وعرف أنه سيقفز فيها ثانية، عرف أنه سيجوب السماء مرة أخرى، في رحلة طويلة وخطرة حتَّى يصل إلى الأرض.

كي يقابل الله!

الفرار إلى الأرض!

حدق الشيخ (عبد الله) في كوب الشاي أمامه وقد تبقت منه رشفة أو اِثنتان ثمَّ ينتهي، تمامًا مثل حياته الخاوية بلا ذرية تحمل ذكراه فوق الأرض بعد أن يموت.

مرت سنوات عمره بسرعة البرق وصار عجوزًا يقارب السبعين، وصارت (سمية) كذلك عجوزًا، ولكن في الستين! صبرت معه المسكينة على مرضه ولم تتخل عنه رغم نظرات الأمومة المتأججة داخل عينيها. ذهب للأطباء، والعطارين، والشيوخ. تصدق، وحج، ودعًا الله مرارًا، وبكى وتذلل في قلب الليالي ولكن بلا فائدة. فقد شاءت حكمة الله أن يكون رجلًا عقيمًا.

أمسك الكوب من جديد وارتشف ما فيه مرة واحدة. حينما يموت هو وزوجته لن يجدا من يرثهما، فكلاهما وحيد أبويه. لا أعمام ولا عمات، ولا أخوال ولا خالات. كلاهما نقطة نهاية لعائلتين كانتا تأملان في البقاء زمنًا أطول على الأرض. ثمَّ تمتم في خفوت: (سبحان الله، سبحان من له الدوام!)

اِنتبه على صوت (سمية) تقف خلف كتفيه وتقول:

- هنيًا يا شيخ (عبد الله).

أرجع الكوب إلى الصينية الصغيرة فوق مكتبه واستدار نحو (سمية) وهتف:

- ألم تنامي بعد يا حاجة؟ الساعة تعدت العاشرة.

- سأنتظرك.

اِبتسم وربت على كفها وقال:

- ما زال أمامي وردين من القرآن لأقرأهما.

سحبت كرسيًا وجلست إلى جواره وهتفت قلقة:

- ماذا بك يا شيخ (عبد الله)؟ صوتك لا يعجبني.

- لقد ظلمتك معي يا (سمية)، لم أقوَ على الابتعاد عنك

صمتت (سمية) تتأمله للحظات ثمَّ اِنفجرت ضاحكة حتَّى ابتلت وجنتاها بالدموع فقهقه (عبد الله) بدوره وأحمر وجهه الأبيض من الخجل، ثمَّ هتف:

- ما بك يا ولية؟ لم تضحكين؟

اِلتقفت أنفاسها وقالت:

- بعد كل هذا العمر تقول مثل ذلك الكلام يا رجل؟

أطرق مبتسمًا وتمتم:

- أشعر بهذا طوال الوقت.

- لكننا تناقشنا قديمًا ونحن صغيرين في هذا الموضوع واتفقنا ألا نتحدث فيه ثانية، ما الذي ذكرك به؟

- لا أدري، أشعر بالقلق، وكأن هناك أمرًا ما يحدث ولا أدري كنهه، وخفت أن أموت دون أن أعتذر لك.

- أطال الله عمرك يا حاج، وعلام تعتذر؟ أنت أجمل ما هاداني به الله في حياتي، ولو خيروني بين أي أمر وبينك لاخترتك بلا تفكير.

- لكني حرمتك من الأطفال.

- أنت لم تفعل، اِستغفر ربك، هذا أمره وتلك حكمته ونحن راضون وممتنون لكرمه، ماذا عسانا نفعل إن امتحننا بإبن عاق قاس أو ابنة مدللة فاسدة؟

- صدقت.

- لقد وهبنا الوهاب لبعضنا ومنحنا الصحة والسعادة والستر، فيم نطمع أكثر من هذا؟

تنهد وأشرق وجهه بالسعادة وهمس:

- ما زال لسانك حلو يا (سمية).

ضحكت وهتفت:

- اِحتشم يا شيخ (عبد الله).

اِبتسم وأحنى رأسه يقبل كفها ثمَّ قال:

- علمي وديني لا يساويان شيئًا أمام قلبك وحكمتك، أنت من ترديني دومًا للصواب إذا شردت وراء وساوس الشيطان.

- حسنًا، كفاك كلامًا وسهرًا، وهيا معي لتستريح.

- اذهبي أنت ونامي، وأنا سألحق بك حينما أنتهي.

ربتت (سمية) على كتفه ثمَّ اِنصرفت وهي تداري دمعة حزينة نبتت في عينيها العجوزتين، دمعة لم تجف أبدًا على حلم عزيز لم يتحقق!

***

كانت رحلة (كاز) طويلة وعصيبة، ولكن هناك يقينٌ راسخ ملأ جوانحه وطمأنه.

يقين جعله يختار من بين بوابات السماء العديدة أيُّها يعبر وأيها يتجنب. يقين قاده في دروب لم يعلم بوجودها أصلًا، وأخبره متى يتمهّل ومتى يسرع.

شاسع جدًا ذلك الكون حتَّى بالنسبة إلى شيطان يافع مثله، لكن حب الإله الذي بدأ في التشكل داخله كان أرحب وأوسع!!

وفي النهاية أتم هجرته من أقصى السماء الدنيا، إلى أن وصل إلى الأرض بسلام.

كان الليل سترًا على نزوله. هبط في نفس المدينة الساحرة التي عرف فيها الشر، وعرف فيها الحب، وعرف فيها الحقيقة. وبقلب يملؤه الشجن، هام في الطرقات وهو يتذكر وجه (سيرا) وضحكاتها وغضبها وعشقها وخوفها عليه.

إذا دخلت (سيرا) الجحيم فسيرجو من الله أن يعذبه معها! أو فليعفو عنهما ويرحمهما معًا. لقد عرفت الحقيقة وآمنت، ولكنها كتمت إيمانها. إنها تستحق العفو. إنه الأمل الذي ينبغي أن يعيش أيامه الباقية من أجله، أن ينال عفوًا له ولها، ومن يدري؟

لقد أصبح مثل البشر طماعًا. لم ينل حتَّى عفوًا لصالحه، ولا يعرف إن جاز له هذا الأمر أم لا، والآن يطالب بعفو إضافي لحبيبته!

أخيرًا وصل إلى الزقاق الذي يقع فيه بيت الشيخ (عبد الله)، لا بد وأنه صار عجوزًا الآن.

لقد تغير كل شيء. زادت أعمدة الإنارة، وتضاعف عدد البشر. تحول الزقاق المبلط إلى شارع مرصوف، وعلت البنايات على الجانبين. البشر يتغيرون سريعًا!

لقد كان هنا منذ أسبوعين نجميين، ما يعني أن أربعين عامًا أرضية قد مرت. تمنى أن يجد الشيخ على قيد الحياة، إنه أمله الوحيد في النجاة.

ملأه الحبور حينما رأى منزل (عبد الله) في مكانه، لقد تغير من الخشب إلى الحجر الأبيض، ولكنه بقى من طابقين فقط، فبدا كقزم صغير وسط البنايات المتعملقة من حوله.

الساعة تقارب العاشرة مساءً. لم يكن بإمكانه الانتظار حتَّى الصباح، فتشكّل في صورة شاب ثلاثيني أسمر، جميل القسمات، مجعد الشعر، يرتدي سروالًا أزرقًا وقميصًا أبيضًا، ثمَّ دق الباب في ثقة، وبعد دقيقة جاءه صوت الشيخ واهنًا:

- **من بالباب؟**

اِبتسم وهتف مسرعًا:

- **عابر سبيل يا جدّي، أريد المساعدة!**

سمع صوت المزلاج وهو يتحرك، ثمَّ فُتح الباب، وظهر (عبد الله) مرتديًا جلبابًا داكنًا فضفاضًا، قامته يسيرة الانحناء، وشعره فضي، ولحيته قصيرة بيضاء. زم الشيخ عينيه العجوزتين وهو يطالع في وجه (كاز) ثمَّ قال:

- **ما اِسمك يا بني؟**
- **اِسمي، (سعيد).**

حدق (عبد الله) في عينيّ (كاز) بتشكك ثمَّ تمتم:

- **عيناك غريبتان! أنت لست من أهل الحي، لا أذكر أني رأيتك من قبل.**
- **فعلًا يا جدي، أنا غريب!**
- **وماذا تريد يا ولدي؟**

- أود الحديث معك لدقائق معدودة فقط.

- الآن يا ولدي؟

- عذرًا يا شيخنا إن أتيتك في هذا الوقت المتأخر لكن الأمر ضروري وعاجل.

تنهد (عبد الله) مستسلمًا ثمَّ دعاه إلى الدخول، وقاده إلى غرفة الكتب، ثمَّ أضاء المصباح الكهربي الموضوع على سطح المكتب بينهما، وبعد أن جلسا همس:

- لا داعي للجلبة فزوجتي نائمة، خير يا بني، ماذا تريد؟

دار (كاز) بعينيه في الغرفة، لا شياطين فيها، لكنها، كالمعتاد، مكدسة بالملائكة!

- قد يبدو ما أسأله غريبًا ولكن ليس عندي وقت كاف للشرح المستفيض.

- قل ما عندك وسأرى ما يمكنني فعله، هل تريد مالًا؟

تنهد (كاز) ثمَّ قال:

- لا أيُّها الشيخ الكريم، المال لا ينفع من هم مثلي.

- من هم مثلك؟؟ لا أفهم يا ولدي، ماذا تريد إذن؟

- أريد أن أقابل الله!

تراجع الشيخ بظهره للخلف، وقضّب حاجبيه الأبيضين الكثّين، وهمس:

- ماذا؟

- كما سمعت، أريد ان أقابل الله وأتكلم معه، ولا أعرف كيف أفعل ذلك، أنا عندي مسائل وحاجات لا تحتمل الصبر.

- أو لم تقابل الله قبل الآن؟؟ سبحانه بابه مفتوح على الدوام.

أطرق (كاز) وتمتم:

- أنا لم أعرفه قبلًا، فكيف يفتح بابه لغريب مثلي؟

- يا ولدي كلنا على باب الكريم غرباء تائهون وطامعون في محبته.

- ولكن أي طريق تقود إلى محبته؟

تبسّم (عبد الله) وعرف أن أمامه ليلة طويلة، فمسح وجهه ومرر أصابعه خلال لحيته البيضاء ثمَّ قال:

- الطريق إلى محبة الله واحدة يا ولدي، اعبده وافعل الخير واترك حسابك عليه واطمئن.

- حتَّى وإن كانت حياتي كلها آثام.

- هو غافر الذنب وقابل التوب، تقرب إليه بالعمل الصالح ولا تخف.

- الموضوع أكبر من هذا بكثير يا جدي، أخاف أن أصارحك فتنقلب ضدي!

تبدلت ملامح (عبد الله) للجدية وهمس:

- صارحني يا ولدي كي نجد حلًا لك، هل قتلت أم سرقت أم زنيت؟

- كل هذا، وأكثر!

- لا حول ولا قوة إلا بالله، وما أكثر من هذا؟

رفع (كاز) عينيه الحزينتين صوب (عبد الله) وتمتم:

- أنا وسوست وأضللت كثيراً من البشر.

قضب (عبد الله) حاجبيه وقال:

- كثير من البشر؟؟ ماذا تعني؟ لا أفهم

- أنا لست مثلكم يا جدّي!

بقى (عبد الله) صامتًا يقلب الأمر في رأسه ثمَّ همس:

- هل تعني أنك؟؟ لكن هذا غير حقيقي، هذا مستحيل.

هز (كاز) رأسه بالإيجاب ثمَّ رفع كتفيه علامة (ولكن هذا ما حدث!) فتراجع (عبد الله) في مقعده، ولم يقوَ على تحريك عينيه بعيدًا عن وجه ضيفه المريب.

ضياء المصباح بينهما ينير وجه (كاز) بلون أصفر بارد ويلقي بالظلال على الأثاث من خلفه، فيزيد الموقف رهبة وغموضًا. عاود الشيخ الهمس بلسان جففه الخوف:

- هل أنت.......؟

- نعم يا جدي، أنا من تظن، ولكن لا تخف.

- صدقني، لقد شككت في أمرك منذ البداية، اِسمك ليس (سعيد) إذن.

- لا، ليس كذلك.

أخذ (عبد الله) في الارتجاف وقد اِتسعت عيناه وتسارعت أنفاسه، بينما تجمعت الملائكة حوله كي تحميه وتذود عنه.

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

هتف (كاز):

- يا جدي أنا لا أريد أذيتك، إنما أريد عونك!

قال (عبد الله) بصوتٍ متهدج:

- لِمِ لَمْ تحترق يا ملعون عندما أستعذت بالله منك؟

- لا أدري، ربما لأني لست الشيطان الرجيم الذي تقصده، ذلك هو (إبليس)!

- من تكون إذن؟ قل الحقيقة.

أطرق (كاز) قليلًا ثمَّ قال:

- أنا مخلوق من مخلوقات الله، واحد من بني (إبليس) فررت منه كي أبحث عن الله، وأكفّر عن خطاياي.

عاد الشيخ للصمت حائرًا وهو يقلب عينيه في (كاز). أيكون شيطانًا حقيقيًّا، أم شاب رقيع يلهو به؟ ضغط (عبد الله) على أضراسه وهتف متحفزًا:

- وما أدراني أنك لست واحدًا من شباب الحي العابثين جئت لتسخر مني؟

- سأثبت لك، ولكن لا تفزع.

بعد لحظات اِرتفع (كاز) بجسد (سعيد) عن المقعد، وصار في الهواء لا يستند على شيء، حتَّى كادت رأسه أن تلامس السقف ثمَّ عاود الهبوط ببطء وجلس على مقعده مرة أخرى، ورجع وجهه المبتسم إلى بقعة الضوء من جديد!

شل الفزع (عبد الله) وتقلصت أصابع كفيه المعرورقتين على مسنديّ مقعده، وهو فتح عينيه عن آخرهما يحدق مذهولًا في (كاز) الذي قال:

- هل تأكدت الآن؟

همس الشيخ بأنفاس سريعة متلاحقة:

- يا إله السماوات والأرض، يا أرحم الراحمين أغثني، قلبي سيتوقف!

- يا جدي أرجوك لا تخف.

واصل (عبد الله) اللهاث وهتف بصوتٍ مرتجف:

- اِنصرف يا عدو الله، لا سبيل إلى توبتك المزعومة، أنت مساق إلى الجحيم.

- ولِمَ؟؟

- لأنك شيطان نجس، أنت ترتكب المعاصي وتوسوس لنا كي تلهينا عن عبادة الله.

- ألم تخبرني منذ لحظات أن أتقرب من الله وأتوب إليه مهما عظمت آثامي؟، ألم تقل أنه يغفر الذنوب جميعًا؟

هتف (عبد الله) مشدوهًا:

- ولكن الله لا يخاطبك أنت، إنه يقصد عباده، إنه يقصد البشر.

- أو لستُ واحدًا من عباده؟؟

- لا، عباد الله هم من يقدسونه، ويتّقونه، ويمتثلون لأوامره، وأنت لست من كل هؤلاء

- وكيف أكون منهم إذن؟

عاود الشيخ الهمس، بصوت مرتعش، أقرب للنحيب:

- لا أملك جوابًا لسؤالك، أرجوك، دعني بسلام وانصرف.

هتف (كاز) متوسلًا:

- أنا أبحث عن التوبة وأرجو نجدتك!

- أنت وكل عشيرتك كاذبون وملعونون. هكذا أخبرنا الله، وكل الرسل والأنبياء والصالحين.

- كيف أثبت لك صحة ما أقول؟

صاح (عبد الله) بصوت خرج مرتجفًا مبحوحًا متوسلًا:

- لا أريدك أن تبرهن على شيء، فقط اِنصرف إلى الجحيم الذي أتيت منه.

ثمَّ ظل يردد بصوته الباكي:

- يا ودود يا ودود، يا ذا العرش المجيد، يا مبدئ يا معيد، يا فعالًا لما يريد.

نظر (كاز) في أسًى وذهول إلى (عبد الله) الذي واصل مرتعدًا.

- أسألك بنور وجهك الذي ملأ أركان عرشك، وأسألك بقدرتك التي قدرت بها على جميع خلقك، وأسألك برحمتك التي وسعت كل شيء.

...... لم يتوقع أن يصده هكذا.

إلى أين عساه يذهب إن غادر؟

(إبليس) وجيشه يملأون الأرض بحثًا عنه. إن ترك حصن الشيخ ستكون نهايته لا محالة. نهاية فاترة كالحة، فلا هو ظل غافلًا يرتوي من ملذات الدنيا ونعيمها، ولا هو اِهتدى إلى الحق وكفّر عن آثامه.

وارب (عبد الله) عينيه، وقد ملأتهما دموع الرجاء والهلع، وواصل ابتهاله:

- لا إله إلا أنت، يا مغيث أغثني، يا مغيث أغثني، يا مغيث أغثني.

نهض (كاز) من مكانه، ونظرات الشيخ تلاحقه في ترقب، ثمَّ هتف:

- سوف أتركك لحالك أيها الشيخ الطيب، كنت ملاذي الأخير ولكنك خذلتني.

- اِنصرف، اخرج منها فإنك رجيم، وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين.

تنهد (كاز) ثمَّ اِنسل خارجًا من البيت، والملائكة المسبّحة تملّس على كتفيه!

صراع البقاء!

اِحتواه الليل البارد من جديد، فمضي يلوك الطرقات الغافية بقدميه، وعيناه المتوترتان ترقبان كل شيء من حوله.

المارة من البشر يعبرون إلى جواره فلا يعيره أغلبهم أي اِهتمام، والكثيرون من بني قومه يحدقون فيه وهم يطيرون من حوله، وقد أدهشهم زيه البشري الخانع الحزين.

ما العمل الآن؟

أيذهب إلى الأب (يوسف) في الكنيسة؟؟ ربما يغيثه ويمد له يد المساعدة. ولكن ماذا لو خاف وطرده هو الآخر؟؟

ما بقى له من الوقت فوق الأرض لا يحتمل تجارب فاشلة إضافية. لا بد أن يبدأ في إصلاح ما قد أفسده، ولكن كيف؟؟ أيعود إلى كنف (إبليس) من جديد ويطلب عفوه، ويكتم إيمانه بداخله كما فعلت (سيرا)؟ ولكن هذا مستحيل، ف(إبليس) لن يعفو وهو لن يرضى بالخنوع أمام قاتل حبيبته.

هل يصلح ما أفسده في حياة البشر؟؟ ولكن كيف يرد من قُتل إلى حياته، ويعيد من خانت إلى عفتها؟ كيف يصلح صلوات أفسدها، وذمم خربها، وآمال دمرها؟

يا له من إرث بغيض!

ما حدث قد حدث ولا سبيل إلى تغييره. أجل، فليبدأ إذن من جديد.

ولكن كيف يعرف أن الإله موافق على ما يخطط؟، هل سيغفر له مثلما يفعل مع البشر؟؟ كيف يعرف أن الحقيقة، التي جمع أطرافها من كل مكان ستقوده إلى الجنة وليس إلى الجحيم؟

أين هو صوت الإله يحدثه ويطمئنه؟ أين هو البرهان الذي ينتظره ويرجوه؟ أخبره الملاك أن الإله سيحدثه بطريقته الخاصة، كيف ومتى وأين!

هل يفعل الخير إذن لغرض حب الإله ورضاه، وليس رغبة في نعيمه أو خشية من عذابه؟؟ ولكنه طامع في نعيم الإله ومرتعب من عذابه، هذا جنون!!

الحيرة تمزقه، والخوف يزلزله مع كل خطوة يخطوها.

أنهكه التفكير فهوى جالسًا على جانب الطريق، وأسند ظهره على جدار بيت منزوٍ أسفل شجرة ضخمة غافية. الأرض من تحته صلبة باردة، والجدار وراءه غليظ قاس يقرح ظهره. ظمآن جائع والألم يكاد أن يشطر رأسه نصفين.

ما أبأسك يا (سعيد)!

بعد لحظات سمع صرير باب خشبي يُفتح، ثمَّ خرج عليه رجل بدين أصلع بجلباب اِرتداه على عجل، ونظر إليه مرتابًا، ثمَّ صاح حانقًا:

- من أنت يا هذا؟ ولم تجلس هنا عند بابي؟

- متعب من طول الطريق، سأستريح قليلًا ثمَّ أغادر.

- بل تغادر الآن، شكلك مريب، ارحل سالمًا وإلَّا أجبرتك على الرحيل.

حرك الرجل البدين قبضته في الهواء مهددًا، فكاد (كاز) أن يضحك رغم آلامه

وتعاسته. لو عرف ذلك الآدمي مع من يتشاجر سيخر ميتًا في لحظة. لكن (كاز) نهض من فوره وهمس في أدب:

- إكرام الغريب فضل يا أخي، كن من أصحاب الفضل وفز بالثواب!

ماذا؟!! هل أصبح الآن ينصح الناس بالبر وصالح الأعمال؟ راقته الفكرة. وما المانع، أي شيء أفضل من لا شيء.

جذب الشجار اِنتباه شيطانين عابرين، فقفزا فوق كتفيّ البدين يهمسان في كلتا أذنيه، فأكمل صياحه بحنق والرذاذ يتطاير من بين شفتيه الغليظتين:

- يبدو أنني سأحطم عظامك أيُّها الأبله، هل تريدني أن آوي اللصوص والمتسولين إلى بيتي؟ هل تريد التلصص على زوجتي وبناتي؟ أغرب عن وجهي حالًا يا ابن الكلاب، هذا آخر إنذار لك.

تنهد (كاز) ورفع كفيه متراجعًا، ثمَّ اِستدار وانصرف في هدوء. بعض البشر أشد قسوة من الشياطين أنفسهم!

اِنتصف الليل، وواصل البرد القارس إفراغ الطرقات من روادها، بينما أخذت الرياح تزوم عابثة بالأتربة وأوراق الشجر النافقة هنا وهناك.

على جانب الطريق الخالي حيث تتراص الأشجار متلاصقة، وبمساعدة الضوء الشحيح القادم عبر فرجات الأغصان، رأى اِمرأة تمشي تجاهه في رويّة وهي تتفرس في ملامحه وهيئته. ما أن اِقتربت منه حتَّى اِبتسمت. جمالها بسيط، رغم محاولاتها المضنية في وضع المساحيق على وجهها لتبدو فاتنة. جسدها الفارع عليه ثوب أرجواني لامع، يُظهر الكثير، وفوق كتفيها شال أسود من الصوف. عرف ما يدور في رأسها فتجاهلها ومضي يتابع طريقه في هدوء، ثمَّ سمع خطواتها من خلفه تستدير وتلاحقه.

- بست، بسست، أنت، توقف يا رجل!

توقف والتفت يواجهها وقبل أن تتكلم أسرع يقول صارمًا:

- اسمعي، ليس عندي ما تريدين، وأنا لا أريد ما عندك!

- كلامك عجيب، تبدو وحيدًا وغريبًا يا مسكين.

- مضبوط، وكذلك منهك ومفلس.

صمتت لبرهة تأكله بعينيها، وقد بدأ شيطانها في التسلل إلى داخل ثيابها، ثمَّ همست في تودد:

- حسنًا، دعنا نتعارف فقط ونرى ماذا ستفعله بنا الساعات القادمة.

- لا داعي يا صغيرتي، ما تفعلينه خطأ، ألا تعرفين هذا؟

اِقتربت منه أكثر، وسددت نظرات عينيها المكحلتين صوب عينيه. اِشتم في أنفاسها الدافئة رائحة تبغ وخمر، ثمَّ قالت:

- لقد أعجبتني يا غريب وأنا الليلة في مزاج رائع، هيا، تعال معي.

أرجعها للوراء من كتفيها برفق، وهمس:

- صدقيني، أنا آخر شخص في هذا العالم تودين البقاء معه، فابتعدي عني.

اِنتبه شيطانها للحوار الدائر، فأخرج رأسه من بين طيات ثيابها ولكنه أجفل حينما نظر إلى (كاز). اِكتشف أنه ليس بآدمي، عرف أنه إبليسي مثله ولكن به أمر مريب، فترك جسد المرأة ولاذ بالفرار مذعورًا!

خفّت حماسة المرأة، وتراجعت للخلف خطوتين، وتمتمت في استهجان:

- كما تريد، رجل مجنون، أم تُراك من إياهم؟؟؟

ثمَّ ضحكت في بذاءة ومشت مبتعدة وهي تتبختر.

عجيب أمر البشر! كيف لامرأة كهذه أن تهتدي إلى الله؟

لماذا يغفر الله لها إن ندمت، وتابت، ولا يغفر له؟ إن كانت إمرأة كهذه تملك أملًا في العودة ونيل المغفرة، فلابد أنه يملك أملًا مشابهًا، هي لا تختلف كثيراً عنه، إن لم تكنْ أسوأ! هكذا فكر وهو يبتعد.

مشي كثيراً خلال الطرقات وهو شارد في ما يحمله له المستقبل من كوارث محتملة. ما زال يسترجع صورة (سيرا) حينما اِبتسمت له للمرة الأخيرة. ليتها معه الآن.

ساقته قدماه المتعبتان إلى مخبز صغير. رائحة الخبز الساخن الشهية تفوح خارج الجدران، مصحوبة بدفءٍ محبب. كان الخبّاز بالداخل يواصل عمله بدأب واجتهاد، وقد غطى الطحين الأبيض شعره، ووجهه، وملابسه البسيطة. تنحنح (كاز) عند باب المخبز الموارب فالتفت إليه الخباز، وعقد حاجبيه في تشكك، ثمَّ صاح:

- ماذا تريد؟

- جائع ولا أملك مالًا.

زفر الرجل حانقًا، وصاح في غضب:

- وأنا كذلك، انصرف!

- أعطنى رغيفًا واحدًا فقط.

- لا أملك هذا المكان، أنا أعمل فيه وممنوع عليَّ أن آخذ شيئًا لنفسي، وصاحب المخبز بخيل ودقيق في حساباته.

- إنه رغيف واحد يا رجل، وهو لن يلحظ، كن كريمًا.

- اِنصرف في أمان ولا تسبب لي المشاكل، لا خبز بدون مال.

حدّق (كاز) في المكان ولمح بعض الملائكة تسبّح في اِطمئنان. لم تكن هناك

شياطين توسوس. الخباز يتصرف من تلقاء نفسه. إنه قاس ولكنه يتكلم بالحق، فهو لا يملك المكان، ولو أعطاه سؤله ستُعتبر تلك سرقة.

في بعض الأحايين يصعب على المرء تحديد الصواب من الخطأ!!

اِنصرف (كاز) بعد أن شكر الخباز بابتسامة خاطفة.

رائحة العجين ألهبت الجوع أكثر بداخل جسده البشري فمد بصره هنا وهناك، إلى أن لمح على البعد صندوق قمامة، بجوار مطعم كبير أغلق أبوابه وخفتت أضواؤه. عبر الطريق، وحام حول الصندوق المعدني الضخم، ثمَّ انتشل قطعة فطير، وبعض حبات الفاكهة المقضومة، ومضى يأكل في نهمٍ.

هدأ الجوع في جوفه، ولكن هاجمه الإنهاك بضراوة. الجسد البشري الضعيف يتداعى إن لم ينم.

هبّات الهواء البارد آلمت أذنيه، وأثلجت ظهره بقشعريرة قاسية، وكبلت جفنيه بأثقال خفية. لم يكن (كاز) ليخاطر بالتحول إلى هيئته الشيطانية فيراه (إبليس) أو يشي به شيطان عابر. اِستمرار اِختبائه في صورة البشر سيؤخر عثورهم عليه، رغم ما ينطوي عليه من مخاطر خضوعه لقوانين الأجساد الطينية الهزيلة.

سمع نداء صلاة الفجر يخرج من جامع قريب فانتبه. كان صوت المؤذن حانيًا وديعًا ولم يؤلمه.

هل يذهب للصلاة؟؟ وماذا عساه أن يفعل؟؟ إنه لا يعرف شيئًا عن صلاة البشر. لا يعرف طقوسها ولا شروطها. جهله سيلفت مزيدًا من الأنظار ليس إلَّا.

اِنصرف آفلًا، وعبر الطريق إلي حيث بقعة مقفرة وخالية من البيوت. اِفترش الأرض المكسوة بالرمال والحصى الصغير، وضم ركبتيه إلى صدره، وتوسد ذراعه، ثمَّ غاب في نوم عميق.

***

- مجنونة يا طمااااطم!!

رفع بائع شاب عقيرته بالصياح، ففتح (كاز) عينيه منزعجًا ثمَّ اِنتفض جالسًا، ليجد أشعة الشمس وقد نشرت بهاءها الأبيض الدافئ على كل شيء.

عاين المكان من حوله في اِستغرابٍ، لقد اِمتلأت الساحة الفضاء التي نام فيها بالعشرات من باعة الخضروات والفاكهة. البعض يفترش الأرض، والبعض يقف خلف عربات ثابتة أو معلقة على ظهور البغال. الكل يصيح وينادي على بضاعته، والمارة مكدسون أمام الباعة يشترون ويهاودونهم في الأسعار. زحام وضوضاء. عالم آخر غير الذي رآه في الليلة السابقة حينما أوى إلى ذلك المكان القفر!

لحسن حظه أنه كان راقدًا على أطراف السوق ولم ينتبه إليه أحد. نهض على مهل مستشعرًا آلامًا في ظهره جراء نومته في العراء.

شرع (كاز) ينفض عن ملابسه الأتربه، حينما لمح بالقرب منه رجلًا عجوزًا يوزع صناديق الخضروات بظهر محنيٍ وذراعين مرتعشتين. كان قمحي البشرة، حليق الوجه، يرتدي جلبابًا رماديًّا بسيطًا، وعمامة بيضاء تُظهر بعضًا من شعره الأشيب.

أسرع (كاز) يحمل الصناديق عن العجوز، الذي توقف لبرهة مشدوهًا يلتقط أنفاسه اللاهثة، ثمَّ ما لبث أن اِبتسم، وظل مكانه يرقب (كاز) وهو يرتب صناديق الخضروات في سرعة وإتقان.

صاح العجوز:

- ما اِسمك يا بني؟

- اِسمي، (سعيد) يا سيدي.

- لست سيد أحد يا فتى، أنا الحاج (شوقي) وقد وظفتك للتو عندي!

ضحك الحاج (شوقي)، وهو يمد كفه ليصافح (كاز) الذي ارتبك لوهلة ثمَّ أسرع يصافح العجوز ويقول:

- لقد كنت أساعدك فقط يا، يا حاج.

- أنت لا تريد الوظيفة إذن؟

- بلى يا سيدي أريدها، أشكرك.

جلس الحاج (شوقي) على مقعد خشبي صغير، أسفل مظلة مخروطية من القماش الأزرق الكالح، بالقرب من صناديق الخضروات. مسح بكمه العرق عن جبهته ثمَّ قال:

- كل يوم تأتي إلى هنا صناديق الخضروات والفاكهة من الحقول القريبة فتوزَّع على عدد من البائعين، وفي نهاية اليوم يأخذ صاحب المزرعة البضاعة المتبقية ونقتسم معه الأرباح.

- تبدو تجارة سهلة ومربحة.

ضحك الحاج (شوقي) وقال:

- لقد أوضحت لك الجانب المشرق فقط، هناك إتاوات ندفعها للبلطجية، وإيجار للأرض التي نقف عليها، والكثير من الصراعات مع الباعة الآخرين والشرطة.

أومأ (كاز) برأسه متفهمًا؛ ساحات الأسواق كانت من الأماكن المفضلة لديه. أكمل الحاج:

- لقد كبرت على هذه الوظيفة وأحتاج من يعينني، ولا أدري لم أُعجبت بك ودخلت قلبي، ربما شهامتك، أو قوتك، أو ربما شيء آخر

- أشكرك يا حاج على كرمك، خير من اِستأجرت القوي الأمين!

- ما شاء الله، وتحفظ القرآن كذلك؟ حسنٌ، سأقتسم معك ربحي القليل، في البداية أنت الثلث وأنا الثلثان، هل توافق؟

- هذا كرم وفضل منك يا حاج.

- ممتاز، وربما تركت لك المهمة كلها بعد شهور قليلة كي أعيش ما بقي من عمري في سلام، أنا رجل عجوز وزوجتي رحلت منذ أعوام ولم يكنْ عندنا أولاد.

دقق (كاز) نظراته الثاقبة في صدر الرجل، روحه متوهجة وصافية، فابتسم وقال:

- يشرفني أن أكون اِبنك يا حاج.

ضحك العجوز وهتف:

- أنت شاب طيب، من أين أتيت؟

- من مكان بعيد، بعيد جدًا!

- وما هي قصتك؟

- ربما أحكيها لك لاحقًا يا حاج.

- أرجو ألا تكون هاربًا من جريمة.

- بل من جرائم!

- ماذا؟؟؟

أدرك (كاز) أنه تمادى في الكلام كثيراً، فهتف ضاحكًا وهو يربت على كف العجوز:

- أمزح معك يا حاج، اِطمئن بالًا وتوكل على الله.

- ونعم بالله، هيا، اِذهب إذن وباشر العمل، هناك سيدة تريد بعض الخضروات.

***

كان العمل يسيراً على (كاز) مقارنة ببناء الصروح الإبليسية!

تعلم كيف يستخدم الميزان، وأصبح يساعد العجائز على حمل مشترواتهم. يأخذ المال من الزبائن ويعطيه للحاج (شوقي) وهو لا يميز ما الذي يحمله بين أصابعه. يبتسم ببشاشة في وجوه الكل. كان كطفل صغير يستكشف بعينيه وعقله عالمه الجديد من حوله.

اِختلط بأعدائه القدامى وغرق في حياتهم. اِنغمس في صياحهم وضحكهم وشجارهم، اِنبهر باختلافهم واتفاقهم وتنوعهم، وأشفق عليهم من سذاجتهم ورعونتهم وهشاشتهم.

اِستهوته التجربة الجديدة وأثارته واستفزته إلى أقصى حد، لكن المشكلة التي أرّقته كانت في أبناء جلدته الذين يرتعون من حوله في السوق. تفادى الاحتكاك بهم أو النظر إلى وجوههم قدر إمكانه، فالعينان هما منفذا الروح، العينان تخبران من هو صاحبهما. لو دققوا أكثر في وجهه سيرون ملامحه الحقيقية أسفل الرداء البشري الذي يختفي بداخله. عندها سيتعجبون من سبب تنكره، ولماذا يبيع ويشتري ويساعد بني (آدم) بدلًا من تنغيص حياتهم. وقتها ستتناثر الأسئلة وينفضح أمره.

عندما انتصف النهار تداعى (كاز) تحت وطأة العمل المتواصل مِمَّا اِضطره للاستراحة مرغمًا على قارعة الطريق. يا لأجساد البشر الهشة!

شعر بيد الحاج تربت على كتفه فانتصب واقفًا وهتف لاهثًا:

- سأعود إلى العمل حالًا يا حاج!

- لا عليك يا ولدي، اشرب الماء وتناول بعض الفاكهة، ثمَّ باشر العمل عندما تستريح.

اِبتسم (كاز) في إنهاك، ثمَّ توارى بعيدًا كي يسترد بعض عافيته.

وأخيرًا اِنتهى اليوم. نفح الحاج المال ل (كاز) ثمَّ اِنصرف عائدًا إلى منزله. غادرت السيارات بالمتبقي من الخضروات، وبعد سويعات قليلة خلا المكان ثانية.

اِستلقى (كاز) في المكان الذي نام به ليلته الفائتة. توسد ذراعه، وضم ركبتيه إلى بطنه، وأغمض عينيه. كان مرهقًا ومنهكًا، ولكنه مبتهجًا ومغتبطًا إلى حد الانتشاء!

***

مر أسبوعان على (كاز) وهو يساعد الحاج (شوقي). لم يصرف شيئًا من النقود التي تحصّل عليها. تعود أن يقتات على بعض من الخضروات والفاكهة المتبقية آخر كل يوم، وأن يبيت ليلته في ذات البقعة المقفرة الفضاء.

ذاب أكثر في زحام البشر من حوله. عرف مشاكلهم وأحلامهم، عرف سيّئهم وخيّرهم، وتمنى لو خُلق كواحد منهم.

عرف أم (سعدية)، صاحبة (الفرشة) التي إلى جوارهم بالسوق. طالما اِستأذن الحاج كي يساعدها ويسمع منها حكاياتها التي لا تنتهي. أرملة في الخمسين من عمرها، تبيع لفائف الأوراق الخضراء، ولا تريد من متع الدنيا سوى بعض الفتات الذي يعينها على تربية ولدها المعاق، الذي ولد هكذا بعد حمل قصير قاس، وبقى طريح الفراش لا يتحرك ولا يتكلم باقي حياته.

لم تر أم (سعدية) الجنة ولا الملائكة ولا الأنبياء، ولا سافرت بين النجوم، ولم

تدخل طرفًا في صراع قديم مدمر. ورغم حياتها القاسية لم ينقطع لسانها عن الحمد والثناء على الإله، ولم تخلو شفتيها من التبتسامات الطيبة توزعها بلا مقابل على الجميع.

بعدها تعرف على عم (غبريال)، تاجر الفاكهة. رجل أسمر متين، ملابسه دومًا نظيفة، وأسنانه بيضاء تلتمع كلما ضحك. لا يكف عن مساعدة المحتاجين و صغار الباعة المتعثرين. زوجته قاسية تكدر عليه حياته، وأولاده الجامعيون أصبحوا يتنكرون له ويخجلون من صنعته. ورغم أحزانه إلَّا أن بشاشته ومزاحه لا يتوقفان.

في ذات ليلة، وبعد اِنفضاض السوق، لمح رجلين غليظي الملامح يقتربان من الحاج (شوقي) ويتحدثان معه همسًا، ثمَّ أمسك أحدهما الحاج من جلبابه ورفع قبضته في وجهه مهددًا. أذهله المشهد وتسمر للحظات مكانه مشدوهًا. من هذا الذي يعامل الحاج (شوقي) بهذا الشكل؟ ثمَّ اِنتفض مسرعًا وهرع قفزًا ناحية الرجل وأمسك قبضته المرفوعة. لم يكنْ هناك شياطين خلف كتفي الرجل الغليظ أو صديقه. تمنى لو فتك بهما وحولهما هباءً منثورًا في لحظة لكن كف الشيخ المرتعشة أسرعت تربت على صدره وهو يهتف بصوت مرتج:

- خلاص يا (سعيد) يا ولدي، لم يحدث شيء، هذا (منصور)، جاء يذكرني بدين قديم لم أدفعه بعد، لكني أخبرته أنني سأسدده غدًا، (منصور) اِبن حلال وشهم ولا يقصد أذيتي، أليس كذلك يا (منصور)؟؟

قالها (شوقي) مستعطفًا فأرخى (منصور) قبضته وأفلت الجلباب ثمَّ واجه (سعيد) وحدجه بنظرة اِستهزاء قبل أن يبصق على الأرض ويقول:

- وستدفع عن أجيرك الشجاع هذا كذلك يا (شوقي).

ثمَّ غاب ووراءه صديقه بين ظلال القليلين المتابعين للحدث عن بعد.

هتف (كاز) جزعًا:

- من هؤلاء يا حاج، وأي دين يتحدث عنه هذا الشقي؟

- هون عليك يا ولدي، هذا (منصور) زعيم عصابة من اللصوص يغتصبون أموال الجميع بحجة تأمينهم ودفع الرشاوى للفاسدين من الشرطة، لقد أخبرتك سابقًا، تحاشاهم يا ولدي ونفذ ما يقولونه دون نقاش، نحن أضعف كثيراً منهم.

أي عبث هذا! حينما غادر قومه، وترك كل شيء وراء ظهره ونزل للأرض، كان يبحث عن الحقيقة والسلام والعدل، لا أن يخضع من جديد لجلادين وأباليس آخرين.

في الصباح التالي اِعترض (منصور) وعصابته طريق (كاز) وطالبوه بدفع (الإتاوة) فابتسم ساخرًا وحدق في عيونهم، ثمَّ تركهم ومضى. لم يلحقوا به، فقد أرعبتهم نظراته النارية وزرعت الذعر في صدورهم. أدركوا أن هناك شيئًا مريبًا ومفزعًا في هذا الشاب الأسمر، وأن بقاءه في السوق سيشكل خطرًا داهمًا على سطوتهم ومصدر رزقهم. وفي نفس الليلة أجمعوا أمرهم، وتكاثروا عليه ليفتكوا به داخل حارة ضيقة بجوار السوق، لكنه تصدى لهم وأطاح بهم وأذاقهم هزيمة نكراء، على مرأى من الجميع، فتركوا السوق والحي كله بلا رجعة. وفي ظرف أيام نال (كاز) حب الجميع، وصار معروفًا في جنبات السوق ب (سعيد البطل)!

في نهاية أسبوعه الثالث، وبعد اِنفضاض السوق، طلب منه الحاج (شوقي) أن يرافقه للمنزل. أراده أن يبيت ليلته في غرفة خارجية ملحقة بشقته، بدلًا من اِفتراش الأرض العراء في ذاك الطقس البارد.

وافق (كاز) مرحبًا. شعر بحب الحاج (شوقي) له، وأحس برغبة أقوى في الاندماج زيادة مع الآدميين. مشيا مسيرة نصف ساعة وهما يثرثران في أحوال

السوق بعد رحيل (منصور) وعصابته حتَّى وصلا إلى منزل الحاج (شوقي)؛ شقة صغيرة فوق سطح بناية قصيرة، في شارع ضيق ولكنه نظيف.

دق الحاج باب شقته مرتين، فانفتح كاشفًا عن شابة ثلاثينية جميلة!

كانت بيضاء بلون الحليب، رشيقة العود، واسعة العينين سوداهما. أفتر ثغرها الصغير عن اِبتسامة خجلى، عندما رأت نظرات (كاز) المرتبكة، وأسرعت تغطي جدائل شعرها الأسود بوشاح أبيض خفيف ملقىً فوق كتفيها، ثمَّ هتفت:

- لم تقل أن معك ضيوف يا أبي!

ضحك الحاج وقال:

- إنه (سعيد)، الشاب الذي حدثتك عنه يا (عائشة).

- توقعت ذلك، مرحبًا، تفضلا.

فوق أريكة صلبة في الصالة الضيقة، جلس (كاز) جوار الحاج ثمَّ همس مندهشًا بعد اِنصراف (عائشة):

- لم تخبرني أن عندك اِبنة.

- لم أكذب عليك، قلت لك ليس عندي أولاد!

- ولم؟

- لم أكن أعرفك جيدًا وخشيت أن تستغلني كي تفوز بها.

ضحك (كاز)، وهو يرى الرجل يقهقه في حبور، وقد اِزدادت روحه إشراقًا!

تناول ثلاثتهم عشاءً شهيًّا، أعدته (عائشة)، ثمَّ شربوا الشاي الساخن، وأكلوا بعض الفاكهة. طوال الوقت كان الحاج يتحدث عن بطولات (سعيد) في مواجهة البلطجية، وكيف أنه أعاد الأمن والعدل إلى السوق، بينما (عائشة)

تختلس النظرات الخاطفة للضيف الجديد. لمحها تتأمل كتفيه وصدره ثمَّ التقت عيناهما خلسة فابتسمت، وأطرقت، وإحمرّ خداها خجلًا.

أخيرًا كف الحاج عن سرد الحكايات فنهضت (عائشة)، وجمعت الصحون الفارغة وغابت داخل المطبخ، ثمَّ اِستأذنتهم كي تنام في غرفتها بعد يومها المرهق.

اِنسل الحاج (شوقي) و(كاز) بهدوء للخارج، وأمام باب الشقة المُوارب، وفوق السطح المبلط الخال إلَّا من بعض أطباق الاستقبال المثبتة على الحواف، جلسا على مقعدين من الخيزران المضفر.

كانت ليلة صافية، اِستطاع (كاز) أن يبصر فيها عميقًا خلال أغوار السماء. الشياطين تسعى حولهم في كل مكان. الجميع في حالة نشاط زائد. يبدو أن عمليات البحث عنه مستمرة على قدم وساق، لكنه رغم ذلك شعر بالأمان وهو متخفٍ داخل (سعيد) ويجلس بصحبة الحاج (شوقي).

أشار الحاج إلى غرفة خشبية صغيرة، مطلية باللون الأبيض، وتحتل الركن الغربي من سطح البناية، ثمَّ قال مشجعًا:

- هذه هي غرفتك الجديدة يا بطل، بها فرش نظيف، وبجوارها حمام صغير، أثاثها جيد، وإيجارها مدفوع لشهرين مقدمًا.

- هذا كثير يا حاج، أنت كريم للغاية.

همس الحاج مبتسمًا:

- لا عليك فأنت تستحق أكثر، ولكن أنا عندي لك سؤال، ممكن؟؟

- أكيد يا حاج، تفضل.

- أنت طيب الأخلاق، وتساعد كل الناس، وأنا رجل عجوز مضغته الدنيا جيدًا، وأعرف كيف أحكم على البشر، ومع ذلك لا أفهمك!

- لماذا؟

- كيف مثلًا لم أرك تصلي مرة واحدة؟؟ هل أنت مسلم أم قبطي؟

- أ... أ....

- لا شيء يدعو للحرج، في كلتا الحالتين أنت اِبني.

- مسلم، أنا مسلم يا حاج.

- إذن لم لا تصلي معنا؟

صمت (كاز) قليلًا. عرف أن لحظة المكاشفة آتية، فقال في براءة وهو ينظر في عيني الحاج:

- عبادة الله ليست صلاة فقط، أليس كذلك؟!

اندهش الحاج للحظة ثمَّ ضحك وهتف:

- هذا أعجب عذر سمعته في حياتي، بالتأكيد عبادة الله ليست صلاة فقط، ولكن عبادة الله لا بد أن يكون بها صلاة وأشياءٌ أخرى، سبحانه أمرنا أن نصلي له فيجب أن نفعل ذلك، الأمر ليس اِختياريًّا يا ولدي، أنه شرف رفيع منحنا الله إياه كي نقابله ونناجيه.

- صدقت يا حاج ولكن.

- ألم يعلمك والداك الصلاة؟

- لا، لم يعلماني، في الحقيقة أنا لم أعرفهما ولم يربياني، لقد نشأت في، في أماكن كثيرة لم يكنْ يصلي فيها أحد!!

هتف الحاج في حزن:

- يا مسكين، عفوًا يا ولدي لم أتخيل أن حياتك صعبة إلى هذا الحد، ليس هناك أقسى من أن تكون يتيمًا.

- بلى يا سيدي، هو كذلك!

- ولكن كيف تكون حياتك قاسية، وتظل على براءتك وفطرتك السمحة كأنك طفل صغير؟ أنت صادق، ولا تغش الناس، ولا تستغلني، ولم أرك تنظر للنقود مرة واحدة.

صمت (سعيد) وقضب حاجبيه وتمتم:

- لا أفهم ما تعني يا حاج، أليس من المفروض أن أفعل هذا؟

اِبتسم الحاج (شوقي) للحظات وهو يطالعه في حنو، ثمَّ همس في مودة:

- قص علي حكايتك، أخبرني كيف أتيت إلى السوق أول مرة؟

- إنها قصة طويلة، وحزينة، وصعبة التصديق، اِمنحني بعض الوقت يا حاج وسأطلعك على كل شيء في الوقت المناسب.

صمت الحاج للحظة ثمَّ قال في ود:

- حسنٌ، كما تريد يا ولدي، أدخل الآن غرفتك لتستريح فغدًا أمامنا عمل كثير.

فرار آخر!

جلست عائشة أمام المرآة تتأمل وجهها شاردة. لقد أتمت عامها الثلاثين منذ أيام. خلال الأسبوعين الفائتين لم تكنْ على طبيعتها. أنفاسها حارة، وضربات قلبها وثابة. لا تنام جيدًا بالليل ومع ذلك تستيقظ موفورة النشاط والحماسة عند الفجر. هناك أمر ما يجري داخل جسدها وكأنه اِحتفال كبير!

أيكون هذا بسبب (سعيد)؟!

اِلتقطت فرشاتها الخشبية ومضت تمشط شعرها في بطء وهي تفكر. بعد أن ماتت أمها قبل عشرة سنوات قررت ألا تترك والدها لحظة، قررت أن تظل إلى جواره مهما كان الثمن. وأي ثمن أغلى من أن تخسر شبابها وحظها في أن تكون أما. رجاها أبوها كثيرًا أن ترحل عنه ولكنها أبت. رفضت الخاطبين حتَّى توقفوا عن المجيء، وكرست حياتها لوالدها وعملها في المشغل القريب من البيت، حيث تذهب مرتين بالأسبوع.

ثمَّ بدأ أبوها يتحدث عن (سعيد)!

في البداية أضجرها الأمر، لقد أغلقت قلبها أمام كل الرجال وألقت المفتاح بعيدًا حيث لا تصله مشاعرها المحرومة. لكن الأمر اِختلف حينما رأت (سعيد)، حتَّى أنها لم تنزعج أو تتذمر حين أتى به أبوها إلى البيت أول مرة على حين غفلة.

شيء مثير عبث في قلبها، وشرارة كهربية رجت جسدها كله. شعرت به غير كل الذين يحاولون التودد إليها في الحارة أو في العمل.

هناك شغف وبراءة في نظراته، وكأنه طفل كبير يستكشف عالمًا جديدًا من حوله!

أتراه متزوج؟؟

قضبت حاجبيها، كيف لم تخطر على بالها تلك الاحتمالية من قبل؟ تنهدت عابسة وألقت فراشاتها بعيدًا فوق الفراش، ثمَّ تركت غرفتها مسرعة. لا بد أن تترك أفكارها الحمقاء تلك وتنتهي من تحضير طعام الغذاء، ف(سعيد) سيأتي بعد ساعة!!

***

تكررت زيارات (سعيد) إلى منزل الحاج (شوقي)، وتعددت لقاءاته ب(عائشة).

كان يترك السوق عند منتصف النهار، بأوامر من الحاج، ويذهب إلى المنزل كي يأتي بطعام الغذاء، الذي أصبح الحاج مداومًا على طلبه بشكل يومي، عكس عاداته القديمة.

في كل زيارة بدت (عائشة) له أكثر حبورًا وترحيبًا عن سابقتها. في إحدى المرات أطلت عليه من خلف فرجة الباب وقد اِنحسر غطاء رأسها الخفيف ليكشف عن سلاسل ناعمة من شعر أسود فاحم برائحة زيت الزيتون والحناء. تلامست أناملهما عدة مرات أثناء تسليم الطعام. كان يشعر بأصابعها باردة مرتجفة، رغم وجهها البشوش الذي ينبض بحمرة دافئة. أحب حشرجة صوتها الخجول وهي تناديه باسمه.

لم يستغرق أي لقاء بينهما أكثر من دقيقتين، يعود بعدها مسرعًا إلى الحاج وينهمك في عمله دون أن يقول شيئًا. مازحه الحاج مرة وقال له: (لم تأخرت؟) فاندفع (سعيد) يهتف بحرارة وصدق: (مسافة الطريق والله يا حاج). ضحك (شوقي) وقتها وربت على كتفه وقال: (طيب!). من بعدها أصبح (سعيد) يعود إلى السوق هرولة كي لا يتأخر!

بعد أسبوعين، بدأ (سعيد) يشعر أن طريق الذهاب إلى منزل الحاج أقصر كثيراً من طريق العودة الطويل الثقيل! ود لو طار بجسده كي يذهب إلى (عائشة) بلمح البصر، ولولا خوفه من اِنفضاح أمره لفعلها.

أصبح يرقد كل ليلة في غرفته دون أن يغمض له جفن، مسترجعًا أحاديث (عائشة) وضحكاتها وإيماءاتها. لم يتسلل إلى مخدعها أبدًا، بهيئته الدخانية، خاف أن يغضب الحاج منه!

بعد الفجر يهب واقفًا ويفتح باب غرفته ليلحق بالحاج حينما يسمع صوته، مختلسًا نظرات خاطفة إلى جوف الشقة، عبر بابها الموارب، عله يتعثر في طلة أو نظرة من (عائشة).

كان يستشعر دفئًا حانيًا شجيًا كلما ضمته طاولة العشاء مع (عائشة) وأبيها.

أحس بشيء ساحر يتسرب إلى داخله، شعور لا يدري كنهه ولم يختبره مسبقًا. غدت حياته الفائتة بكل صخبها ومرارها أمرًا بعيدًا باهتًا خافتًا، وكأنها ليست حياته، وكأنه مخلوق آخر. لم يعد يفكر في هروبه ولا في فرق الشياطين التي تطارده، أصبح كل ما ينشده هو استراحة من الترحال والبحث والحيرة والخوف.

ولكن إلى أين سيقوده هذا الدرب الغريب الذي اِستحوذ على خطواته ولم يستطِعْ الفكاك منه؟ ما الذي سيحدث تاليًا؟

وجاءه الجواب بعدها بليلتين!

عقب عشاء دافئ، وبعدما اِنصرفت (عائشة) للنوم، سأله الحاج بصوت خافت:

- (سعيد) يا ولدي، عندي سؤال أود أن أعيده عليك.

عرف السؤال قبل أن يقوله (شوقي)، ولكنه ماطل على أمل زائف في أن يخطئ حدسه:

- تفضل يا حاج، خير؟

- لم تخبرني قصتك بعد، هل هناك ما تخفيه عني؟

- وبم ستفيدك قصتي يا حاج؟

- يا ولدي، أريد أن أعرف عنك كل شيء كي يطمئن قلبي.

- اِطمئن يا حاج، أنا لست إنسانًا مجرمًا أو محتالًا.

- أنا متأكد من أخلاقك وطالما اِختبرتك ووضعتك تحت مراقبتي.

- وهل صدر عني شيء أقلقك؟

تنهد (شوقي) مستسلمًا ثمَّ همس في مودةٍ:

- هل أنت متزوج؟ هل عندك أطفال؟ هل لك أقرباء هنا أو هناك؟

- لا يا حاج، لست متزوجًا ولا أعرف لي أقرباء.

- طيب، هل معك بطاقة شخصية، أو شهادات دراسية، أو أية أوراق رسمية؟

صمت (سعيد) وعيناه تضجان بحيرة حقيقية، فتابع الحاج:

- يا ولدي لا بد أن أعرف اسمك وسنك ومن أين أتيت، غير معقول أن تكون هكذا، شبحًا!

- قلت لك يا حاج أني يتيم.

- وهل الأيتام ليس عندهم أوراق ثبوت حكومية؟؟

- أنا، أنا ليس عندي هذه الأوراق.

عاود الحاج التنهد ثمَّ قال متبسمًا وهو يلكزه في كتفه:

- يا واد لا تصعب عليّ الأمر أكثر من ذلك، ساعدني، صدقني الأمر يستحق العناء.

- وما هو هذا الأمر الذي يستدعي كل هذه الأسئلة؟

صمت الحاج (شوقي) طويلًا، وتفحص بعينيه الخبيرتين الشاب الأسمر المليح الجالس قبالته، ثمَّ همس بجدية:

- لأني أريد أن أزوجك (عائشة) يا ولدي!!

***

لم يبت (كاز) ليلته في منزل الحاج (شوقي) وانصرف من فوره.

ضمته الشوارع الباردة المظلمة من جديد. أحكم إغلاق القميص حول رقبته، ودس كفيه في جيبي سرواله، ومَضَى يجوز الطرقات على غير هدى.

لقد رفض عرض الحاج السخي!

شكره وقبّل يديه وجبينه، وترك في حجره كل ما نفحه إيَّاه من أموال.

كانت نظرات الحاج (شوقي) ذاهلة وهو لا يدري ما الذي يحدث؟ كيف لمن هو في حال (سعيد) أن يرفض عرضًا كهذا؛ عملًا، ومأوىً، وأهلًا، وزوجةً جميلة صالحة!؟

تُرى، كيف يخبر العجوز الطيب، أنه يزف اِبنته الوحيدة إلى شيطان؟!!

حتَّى الإنسان الوحيد الذي أكرمه، وأغدق عليه من حنانه وثقته، اِضطر أن يتركه. كيف يعمل عنده، وينظر في وجهه، بعد أن رفض الزواج من ابنته؟، وكيف يتزوجها دون أن يخبرهما بحقيقته؟، وهل تقبل إنسية أن تتزوج شيطانًا؟؟ وهل يجوز أن يحدث هذا من الأساس؟!

قبل أسابيع رفض إمام المسجد، الشيخ (عبد الله)، بكل علمه وصلاحه، أن ينصت إليه، وطرده من منزله حينما علم حقيقته. هزمه خوفه وانتصر على إيمانه وتقواه. تراها ماذا ستفعل إذن (عائشة) إن أخبرها سره؟! ثمَّ كيف سمح لهواها أن يتسلل هكذا إلى حناياه؟ وكيف توقع أن تنتهي قصته معها؟ زواج، وأطفال، وحياة هانئة مستقرة؟؟

وكيف له أصلًا أن يحب ثانية بعد (سيرا)!؟ ماذا دهاه، ما الذي ألمَّ به وبدل حاله؟

لقد نزل إلى الأرض كي يقابل الله، كي يبدأ فصلًا جديدًا من حياته ويكفر عن آثامه، لا أن ينام في أحضان إنسية وينهل من رحيق العشق والمتعة.

على رصيف مظلم مهجور، وتحت أنظار قطة ضالة متوجسة، اِرتكن على جذع شجرة عتيقة. شعر كم هو وحيد، وضعيف، وبائس، وأعزل.

رفع عينيه إلى السماء وأطال النظر في عمقها السحيق الصامت، ثمَّ همس:

(يا الله، هل تسمعني في عليائك المقدسة؟ هل ترى حيرتي، ويأسي، وحاجتي؟

نبيك (يونس) ناداك مغمومًا في ظلمات الحوت، أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فاستجبت له وأنقذته من ضائقته، وها أنا ذا أفعلها مثله. (يونس) كان في ظلمات حوت، أما أنا ففي ظلمات كون بكامله، ولا أعرف سبيلًا

للخروج من ظلمائه، ولا أرى طريقًا يقربني إلى رحمتك، ولا أستشعر أملًا في النجاة من سخطك.

ألستُ واحدًا من عبادك؟ أنت خلقتني. فما هي غاية وجودي؟ أشعر بنور الحقيقة يضيء روحي فيدفئها، لكن حيرتي ووحدتي تعودان وتحاصرانني من جديد، هلّا منحتني قبسًا من يقينٍ يعينني على عتمة شكّي ويرشدني إلى بر الخير والسكينة؟).

شعر بحلقه جافًا يؤلمه فصمت، لقد قال كل ما بداخله، ولكنه لم يتلق ردًا كما اِبتغى وتمنى.

تمنى لو سمع وحيًا من الإله ينزل عليه فيزلزل كيانه ويطمئنه، مثل ما يحدث مع الأنبياء والصالحين من البشر. لكن كل ما ناله كان صمتًا، صمتًا طويلًا جثم عليه حتّى كادت روحه أن تزهق من فرط ثقله!

طالت جلسته المنتظرة بلا فائدة، فنهض حزينًا محنيًّا ومضى في سبيله يكاد لا يرى شيئًا. مشى كثيرًا كثيرًا. طريق يقوده إلى طريق، وحارة تسلمه لأخرى، وفكرة تقذفه إلى ظن، وظن يلقيه إلى حيرة.

جاوزت الساعة الثالثة صباحًا.

السماء فوق رأسه صافية بلا غمام، وهلال القمر النحيف قارب على الاختفاء. الهواء بارد كسول ولا أثر لأصوات سوى هفيف رياح عابثة تلهو من وقت لآخر.

اِنتبه من أفكاره المكدسة فوجد نفسه على أطراف المدينة، في طريق طويل واسع، وخالٍ من المارة. تراصت على جانبيه بنايات مظلمة متباعدة وأعمدة إنارة قليلة.

كل شيء حوله بدا هادئًا غافيًا مهجورًا.

فجأة، ثارت أمامه زوبعة من الأتربة، فتوقف يرقبها بفضول فاتر. أخذت الزوبعة في التعاظم والتسارع، أصبحت عالية شاهقة، وامتلأت بالصواعق والشرر، ثمَّ أحاطته من كل جانب!

أجفل ودار حول نفسه وهو يحمي وجهه بذراعيه، ما يحدث غير طبيعي بالمرة.

ثمَّ تمثل أمام عينيه أسوأ مخاوفه.

داخل جوف الزوبعة المسعورة، ظهر (إبليس) قبالته وجهًا لوجه!!

المواجهة!

..... أيقن أنها النهاية!

لا أحد هنا يغيثه.

إنه وحيد في مواجهة غير متكافئة.

(إبليس)، بهامته العالية، وقوته الغاشمة، وغضبه الأعمى، يقف على بعد خطوات قليلة منه. الشر والمقت محفوران داخل ملامحه العتيقة. أجنحته الأربعة المشرعة تخفي صفحة السماء من خلفه، وإلى جواره وقف (أشتون) متحفزًا!!

يبدو أن (أشتون)، زميله القديم، لم يدخر وسعًا في البحث عنه والوشاية به.

قطع (إبليس) حاجز الصمت وهتف بصوتٍ عميق يحمل كل السخط والكراهية:

- منذ اللحظة الأولى التي حملتك بها عرفت أنك مختلف، لكن للأمانة لم أتوقع أن تخونني وتنقلب على بني جنسك كلهم، وتختبئ خلف رداء بشري مهين كالجبناء والعجزة.

لم يعقب (كاز) وبقت عيناه مشلولتان تحدقان في وجه (إبليس)، وهو لا يَدرِي من أين ستأتيه ضربة النهاية.

تابع (إبليس) حديثه:

- جاوبني، ما الذي تريده وتسعى إليه أيها الصغير؟ ولأي فريق تود أن تنتمي؟ فريق الإله الذي ظلمني ونسى عبادتي وإخلاصي لمجرد لحظة عصيان واحدة؟ أم فريق الثوار الشجعان الرافضين للهوان والخنوع؟

استجمع (كاز) بعض شجاعته، وتمتم بصوت خفيض مرتعش:

- لقد عرفت، عرفت كل ما حدث قديمًا، أنت كذبت علينا!

دنا منه (إبليس) وقال بصوتٍ هادئ:

- هل قرأت كتب البشر المقدسة؟ هل اِستمعت لشيوخهم وقساوسهم؟

- نعم، وقابلت كذلك الملائكة والمنبوذين.

- مرحى، لم تترك لي مجالًا كي أعبث برأسك إذن!

- أنت عاديت الإله وأقحمتنا في مصير حالك لا مفر منه.

- لقد عرفت الحقيقة إذن!

(إبليس) لم ينكر! ثمَّ تابع وهو يثبت نظراته داخل عيني (كاز):

- أجل، أخفيت عنكم ما حدث قديمًا، فعلت ذلك حتَّى لا أشتت ولاءكم وأخسر أي جندي منكم، فأنتم جيشي الجرّار ومعركتي هي معركتكم، أنا السبب في وجودكم، أنتم نسلي وعشيرتي، أنا من جمعتكم وجعلت لكم قيمة في هذا العالم.

أحجية الحقيقة تتضح أمامه شيئًا فشيء، فقال بصوتٍ واثق هذه المرة:

- أنت عصيت الإله وتحديته وظلمت (آدم) وبنيه.

تخلى (إبليس) عن رزانته وتحول للون أحمر قان وصرخ:

- لقد سلب مني الإله كل شيء، أغواني ثمَّ حكم عليّ بالعذاب، أرادني رمزًا للشر يخيف به المغفلين، طردني من جنته، أهانني وأذلني، أي خيار آخر كان أمامي غير الانتقام؟

يكاد لا يصدق ما يسمع!

لقد أتته الحقيقة التى بحث عنها طويلًا، كاملةً صافيةً نقية. جاءته من آخر مخلوق توقّع أن يسمعها منه، من فم (إبليس) نفسه! هتف (إبليس) وهو يدور حول (كاز):

- ما الذي أعجبك في البشر؟، لماذا تأخذ صفهم وتناصرهم؟، أي خير وجدته فيهم؟ ألم ترى كيف يعذبون من يختلفون معهم؟، ألم ترى جشعهم ودناءتهم؟، ألم تقنعك شرورهم بأنهم جنس متدنٍ وفاسد؟

- نحن من نزعزع إيمانهم ونحثهم على الفساد وسفك الدماء.

- لا تكن غبيًّا، إنهم مستمتعون بما يفعلون، وفيهم من هم أشد خبثًا منا.

- ربما هم حَمْقَى بغيضون، ولكن يملكون أملًا بالنجاة.

صرخ (إبليس):

- وهذا ما يحنقني، لقد اتخذهم الإله خلفاء له وأسكنهم الأرض ولم يطلب منهم الكثير في المقابل، ثمَّ أنظر بعدها كيف يكفرون ويفسدون ويظلمون، ورغم ذلك ما زال يحنو عليهم ويغفر لهم، أي ظلم مقيت هذا!

لم يفتح (كاز) فمه، فتابع (إبليس) فحيحه:

- لكنني سأظل أحاوطهم بجيوشي من كل جانب، وأهاجمهم بضراوة وبلا رحمة، لن أذهب للجحيم وحدي، هل تفهم، سأجرهم كلهم معي، وحتَّى هذه اللحظة أنا منتصر بفارق كبير!

أشاح (كاز) بعينيه بعيدًا وقد تقلص شيء ما في جوفه فاستشعر ألمًا حادًا، الملعون (إبليس) يقول الحق، إنه قوي ولن يتوانى عن مخططه الخبيث مهما حدث، والمساقون للمحرقة كثيرون.

اِقترب (إبليس) منه أكثر ونظر إليه بعينيه الناريتين وهمس:

- أنت عرفت الآن كل شيء ولا بد أن تهلك.

- أنا لا أخافك، أنا عرفت الحقيقة وعرفت حب الإله.

ضحك (إبليس) وصاح:

- أي حب؟! أنت لا تعرف حتَّى كيف تصلي له، ترى، هل تتبع موسى أم عيسى أم محمد؟؟ اختر الآن قبل أن تقابله وإلَّا أغضبه هذا كثيراً، أنت لا تعرفه مثلي!

- بلى، أعرفه أكثر منك، الله عزيز حكيم، يعرف من يحبونه بقلوبهم، ولن يرد من يطرق بابه مؤمنًا آسفًا مشتاقًا.

- دعك من هرائك هذا، إلاهك لن يغيثك مني، لكن أنا قد أفعلها وأعفو عنك، سأعطيك فرصة نادرة للنجاة، ما رأيك؟

همس (كاز) مشدوهًا وهو ينظر لعيني (إبليس) المتأججتين:

- ماذا؟

- نعم، أنت مختلف عن كل نسلي، قوي وماكر وشجاع، ولا أود أن أخسرك، أخرج من عباءتك الفانية تلك وسأعفو عنك وأضمك إلى الصفوة، بل أجعلك نائبًا لي، إن اِتحدنا أنا وأنت سنصير أقوى، سنبني سويًّا مُلكًا أكبر، سنحيل الأرض جحيمًا وخرابًا ولن ينجو آدمي واحد.

صمت (كاز)، الخيار في حوزته الآن وعليه أن يقرر، إما أن ينجو ليصبح (إبليسًا) ثانيًا، وإما أن يهلك ويصبح لا شيء.

لقد ناضل كثيراً كي يصل إلى الحقيقة حتَّى أمسكها بين أصابعه، أيكتفي بهذا؟؟ ولكن ما فائدة الحقيقة إن أبقيناها لأنفسنا؟ هكذا قالت له (سيرا) يومًا!!

همس (كاز) دون أن يواري نظراته:

- ماذا لو، طلبنا الصفح من الإله؟

بهت (إبليس) للحظة ثمَّ اِحتقن لهيبه أكثر وصرخ:

- صفح؟؟؟ أي ساذج مخبول أنت؟ أتعتقد أن الأمور يسيرة هكذا؟ نحن لسنا بشرًا، نحن لسنا مخلوقاته المفضلة، أفق، أنت شيطان ملعون ستخلد في الجحيم مهما فعلت.

أشاح (كاز) بنظره بعيدًا من جديد وتمتم:

- أنت تكذب مجددًا، الله محب رحيم.

- يبدو أني أضعت وقتًا كثيراً عليك، أنت لا تستحق عفوي وكرمي، سأسحقك الآن لتكون عبرة لجميع من يعصاني.

تحول (إبليس) من فوره إلى كرة من النيران. تحول لآتون ضخم مستعر. اِختفت كل الموجودات حول (كاز) وارتجت الأرض من تحت قدميه. ضاق صدره وأظلمت عيناه. لا شيء سوى حرارة خانقة ولهيب أسود مسعور يحوطه ويعتصره من كل جانب, فغمض عينيه وتأهب للحظة النهاية.

إنه الهلاك المحتم.

الآن سيفنى وتنتهي مغامرته القصيرة.

بدأ يستشعر الألم يتخلل جلده البشري نحو الأعمق، نحو تكوينه الشيطاني المختبأ تحت عباءة (سعيد).

السخونة تتصاعد داخله، وجسد (سعيد) يرتفع عن الأرض ويتصلب كالقوس وعيناه تشخصان للأعلى.

جسده يتفكك ويتمزق، والألم لا يحتمل.

بغتة ظهرت له (فردوس) البدينة من قلب النيران وهي تحترق، شحم وجهها يذوب ويطمس ملامحها، قبضت على رقبته بأصابع ملتهبة وهي تسبه وتلعنه، (فردوس)؟؟ من أين أتت؟؟ اِرتج جسده أكثر وهو يعافر ليبعدها عنه، ثمَّ هجم عليه الريفي القاتل والبصباص القتيل يكبلان ذراعيه ويجذبانهما، كل في اِتجاه، لحمه يتقطع، وكيانه يتمزق، ثمَّ رأى عصابة المجوهرات، و(فتحي) قاتل أمه، وكثيرون غيرهم ينقضون عليه، رأى وجوهًا كثيرة، كلهم ساخطون، كلهم يصرخون متألمون والنيران تأكلهم، كلهم ينهالون عليه بالضرب وينشبون فيه أظافرهم وأسنانهم.

لا مفر ولا منجى، كل ما ضحى به راح سدى، العذاب يفتح له أبوابه، حتَّى قبل يوم الحساب!

صرخ بكل قوته، صرخة خرجت بصوت شيطاني متحشرج، صرخة حملت في طياتها الألم والفزع والندم.

ووسط هدير اللهيب والآلام سمع صوت (إبليس) يأتيه من بعيد ضاحكًا متشفيًا:

- لكم هي سيئة نهايتك أيُّها التعس!، هل ما زلت تسمعني؟، يقولون أن السمع هو آخر ما يغادر الجسد، أرأيت؟؟ إلهك لم ينقذك مني، أنت تتعجب

بداخلك، لقد ضحيت من أجله بكل شيء ولكنه لم يعبأ بك، عد إلى صوابك وآمن بي من جديد علّي أرحمك، وإلّا سأتركك تموت وضيعًا، وقلبك يملؤه الشك والندم.

وعيه يفارقه سريعًا، ووجوه معذبيه وأياديهم تتلاشى خلف ظلمة داكنة، روحه تجمع شتاتها من أطراف جسده لترحل نهائيًّا، لقد ظن أن الحق معه، أعتقد أن الرب يسانده. هل كان مخطئًا؟؟

(ستموت وضيعًا وقلبك يملؤه الشك والندم!).

اللعين (إبليس) اِنتصر في النهاية.

اللعين يواصل حشد الأرواح في الجحيم، ولا يوقفه أحد.

لحظة!

هل قال (قلبك يملؤه الشك؟؟)، لقد فعلها الملعون، أعطاه الجواب دون أن يدري!

أجل، قلبه به شك ويقينه لم يكتملْ، ما زالت الغلالة الرقيقة قابعة بداخله، ظن أنه تخلص منها ولكنها ما زالت هناك، بذرة نجسة من بذور (إبليس) التي زرعها في قلوب الكل، لا بد أن يلفظها الآن ويتخلص منها، لا بد أن ينطق شهادته، فربما كانت تلك فرصته الأخيرة للنجاة.

همس بلسانٍ مرتجف، وجسدٍ يتشنج، وظهرٍ يكاد أن ينكسر:

- أنا على اليقين يا رب، أنا على العهد، أنت القريب وأنت الملاذ، كل شقاء يهون في سبيل رضاك، أشهد أنك الإله ولا سواك، وأن (إبليس) الكاذب هو الشر والعدو.

هل خفت شدة الآلام وارتخى ظهره قليلًا، أم هي تهيؤات الفناء؟

- ملأتني الذنوب وغمرتني الخطايا ولكن أنت العزيز الحكيم، من سواك ألجأ إليه؟ أنت الحبيب وأنت المحب، ومهما ضللنا فمصيرنا دومًا إليك.

بدأ هدير الزوبعة الملتهبة في الخفوت تدريجيًّا من حوله، الأمر حقيقي لا هلاوس.

- رحماك يا إلهي، كل حكمك فيّ عدل، إن أنعمت عليّ برضاك فقد تمت سعادتي واكتملت، وإن طالني غضبك وعذابك فلن أكف عن التوسّل حتَّى ترضى.

زالت الزوبعة تمامًا واختفى آتون (إبليس)، وسقط (كاز) على الأرض لاهثًا يغطيه العرق.

فتح عينيه في وهن، وطالع المكان من حوله، وأبصر صفحة السماء الصافية وهلالها النحيف. أحس بنسمات الهواء البارد تربت عليه وتجفف عرقه، رغم حالته المزرية إلا إنه لم يمت بعد!

كيف لم يفتك به (إبليس)، وهو في حوزته وبين يديه؟؟

ما زال الملعون بتكوينه المستعر الهائل، منتصبًا على بعد خطوات، وهو يحملق مذهولًا غير فاهم.

اِقترب (إبليس) منه وأخذ يحوم حوله متفحصًا بعناية ثمَّ صرخ مخاطبًا (أشتون):

- اللعنة، أين ذهب (كاز) أيها الحقير؟

ماذا؟؟

أسرع (أشتون) يقول مستغربًا وهو يشير إلى (سعيد):

- كان بداخل ذلك الآدمي يا مولاي، أنت بنفسك كلمته، ثمَّ هجمت عليه كي تسحقه و....

- لقد فر منك يا أبله، لا أثر ل(كاز) اللعين بالداخل، هذا آدمي خالص، أنا أرى قلبه وكبده وعظامه!

هل قال لا أثرٌ ل(كاز)!؟ من يكون بداخل (سعيد) إذن؟؟

لم يكن (سعيد) سوى عباءة بشرية يتخفى أسفلها ليختلط بالبشر، (سعيد) لم يكن إنسانًا حقيقيًا من قبل!

هل تحول إلى......؟ لا... هذا غير معقول!

اِقترب (أشتون) من (سعيد) ومضى يتلمسه ويتشممه ويدور حوله، ثمَّ تمتم في حيرة غبية:

- لقد بحثت عنه طويلًا حتَّى وجدته ثمَّ استدعيتك كما أمرتني يا مولاي، أين تراه ذهب؟

عاود (إبليس) الصراخ:

- هرب يا غبي، أنا الآن أقف أمام آدمي لا يراني ولا يسمعني، لقد جعلت مني أضحوكة،

لكنه ما يزال يراهما ويسمعهما!

صاح (أشتون) مستجديًا:

- الرحمة يا مليكي، دعنا نخطفه ونعرف سره.

ثار (إبليس) أكثر وواصل الصراخ:

- لا نستطيع خطف البشر يا أحمق، نحن نوسوس لهم فقط.

لم يقتنع (أشتون) فقفز في اِستبسال على (سعيد) ليقبض عليه، ولكنه عبر من خلاله وتخطاه، فعاود (إبليس) الهدير في غضب:

- لقد أضعت وقتي، يجب أن أستدعي كل جيوش الجلادين وشياطين الصفوة للنيل من هذا المارق، يجب أن يفنى (كاز)، لا بد أن يموت سره معه.

ثمَّ اِقترب من (أشتون) وفح في وجهه ساخطًا:

- وأنت كذلك أيها الفاشل!!

رفع (إبليس) ذراعه في الهواء، فارتفع (أشتون) عن الأرض عاليًا، وهو يصرخ في فزع، ثمَّ اِعتصر (إبليس) كفه بقوة، فانسحق (أشتون) وتحول إلى رماد أحمر، سرعان ما ذاب في الهواء.

- غبي، كان هذا مصيرك في كل الأحوال بعد ما سمعته.

قالها (إبليس) وعاد يتلفت حوله حانقًا، ثمَّ مال على (سعيد) ومضى يتفحصه مجددًا بنظراته الثاقبة قبل أن يهمس:

- لا أعرف كيف فعلتها ولكني لن أتركك حتَّى أعرف السر، لن تغيب عني وسأحول حياتك الآدمية البائسة تلك إلى جحيم.

ثمَّ اِختفى في لحظة، وعاد الطريق هادئًا من جديد، إلَّا من عواء كلب مذعور يأتي من بعيد.

......

......

لقد نجا....!!

الخاتمة!

لقد نجا، على الأقل حتَّى الآن!

نهض (كاز) من رقدته ببطء وجسده كله يؤلمه، تحسس ذراعيه ورقبته، لا جروح فيها، ثمَّ رفع كفيه أمام عينيه ببطء ومضى يتأملهما في الضوء الأصفر الشاحب، شعر فيهما بوخزات الصقيع، الهواء البارد يتسرب من أكمام قميصه وينفخ على ظهره، فينكمش جلده و ينتصب شعر ذراعيه.

لم يشعر بإحساس مثل هذا قبلًا.

وضع راحة يمناه المرتجفة فوق صدره ومَضى يستشعر دقات قوية تتصاعد من خلف عظامه، هل أصبح له قلب ينبض؟؟

هل تحول حقًا إلى آدميّ؟ هل تغير من نار إلى طين، هل هذا ممكن؟

ما الذي يحدث له؟

أيتأكد ويعود إلى هيئته الشيطانية ولو للحظات؟ كلَّا، لن يجازف بمحاولة كهذه، فربما يفشل في التشكّل ثانية على هيئة (سعيد)، (سعيد) الذي أنقذه، رغم هشاشته، ووقف سدًا صلدًا منيعًا أمام (إبليس) بكل جبروته وسطوته.

لكنه ما زال يرى الشياطين ويسمعهم. هل ستذوي تلك القوى لاحقًا أم ستبقى معه إلى الأبد؟؟ هل سيبقى عالقًا بين التكوينين، شيطان آدمي؟!! هل

سيشتاق يومًا إلى الطيران والسفر عبر الكواكب والنجوم، أم سيقنع بجسده البشري المحدود؟

عشرات الأسئلة تفيض داخل رأسه بلا جواب واضح، فرفع عينيه المبتهلتين وتمتم مخاطبًا السماء:

- إلهي الرحيم، أعرف أنك لست بعيدًا هناك، أنا أشعر بك هنا، معي وحولي وبداخلي، تسمعني وتجيبني، إلهي، هل حقًا عفوت عني وقبلتني واحدًا من عبادك المخلصين؟؟

مرت بضع دقائق ثمَّ شعر بانقباض في حلقهِ، وتغير عليه طعم لسانه ثمَّ اِبتلّت وجنتاه بالماء....

هل تمطر السماء؟؟ ولكنها سوداء صافية بلا غمام.

مد أصابعه المتشككة إلى وجهه وتحسس خديه. المياه تنبع من مقلتيه، إنها دموع! إنه يبكي كالبشر، إنها البشارة!

لقد نزل عليه وحيُه الذي يرجوه ليزلزله ويطمئنه. أخيراً تكلم معه الرب بطريقته الفريدة.

ضحك غير مصدق، أخذ يمسح دموعه براحتيه وينظر إليها فرحًا ويتذوقها، ربما دموعه هي علامة القبول، ربما بكاء البشر هو سبب دخولهم الجنة.

ثمَّ أسبل عينيه في خشوع وقد ملأه الشعور أنه في حضرة الإله العظيم!

يقينه بالخلاص يغمره، ورضاه المطمئن يملأ جوانحه.

ما زال لدينا الأمل في المغفرة يا (سيرا)، لا تجزعي يا جميلتي فأنا لم أنسَكِ.

تلفت حوله فشاهد بعض الملائكة تراقبه عن بعد فابتسم لهم.

شعر بذهنه صاف متقد فبدأ يفكر في ما سيفعله، فمن الآن تبدأ حقبة جديدة.

لا بد أن يواصل مراوغة (إبليس) وجنوده محتميًا ب(سعيد). عليه أن يرحل إلى مدينة ثانية ويذوب في زحام بشر آخرين يساعدهم ويذود عنهم.

عليه أن يكشف عوار (إبليس) بين عشائر الجن والشياطين، عليه أن ينشر الحقيقة بين الجميع.

لا بد أن يخوض معركته كاملة مهما كانت شرسة قاسية، فلا أحد سيخوضها بدلًا عنه، هذا هو قدره وهذا ما خُلق لأجله.

لا تهم الطرق التي سيسلكها، فكل دروب الخير تقود إلى محبة الإله. كل الابتهالات والترانيم هي مديح وثناء للخالق العظيم. كل الصلوات هي حمد وخضوع له. كل يقين بوجوده عبادة، وكل خوف من سخطه توبة، وكل أمل في رحمته اِستغفار. هو الإله الكريم، لن يرد أحدًا عن بابه مكسورًا خائب الرجاء!

مشى في الطرقات هانئًا مستكينًا. عبر إلى جواره رجلان، متدثران بالملابس الثقيلة والبخار الرمادي يخرج متكاثفًا من فاهيهما. اِبتسما مشفقين عندما لاحظا قميصه الخفيف الممزق. عرض عليه أحدهما كوفيته، وخلع الآخر سترته الثقيله فأومأ لهما شاكرًا بابتسامة واسعة وواصل مضيه.

شعر بالعزوة والسكينة وأنه وسط أهله، خارج من ظهر (آدم) ورحم (حواء).

شعر أنه مولود لتوه، يستكشف كونًا جديدًا عليه، وتملأه الحماسة ويغمره الشغف. تُرى، هل تملك (آدم) ذات الشعور حينما فتح عينيه للمرة الأولى؟!

لكن أيام الأرض عجولة خاطفة وأجساد البشر تذوي بسرعة، وهو ما زال أمامه عمل كثير ينجزه. عليه أن يبدأ دعوته سريعًا، فهو لن يدع تلك الفرصة

تضيع هباءً من يديه مهما حدث، ولن يترك الأمل بالنجاة يفارق روحه ما دام حيًّا.

لقد اِنفتح له أخيراً الباب على مصراعيه.

باب الرجاء الواسع، باب المغفرة الرحيب.

باب الإله الرحيم!

تمت بحمدِ الله

د. شريف محمد ثابت

المراجع:

- القرآن الكريم.
- تفسير (القرطبي).
- (إبليس) للكاتب عباس محمود العقاد.
- عالم الجن والشياطين (العقيدة في ضوء الكتاب والسنّة) للدكتور عمر سليمان الأشقر.
- (الرحمن والشيطان) للكاتب فراس السواح.

للنشر
والتوزيع

info@noonpublishing.net

02-338560372- 01127772007